

موقف الفراء من قضية الضياد من خلال كتابه
(معاني القرآن)

أ.د. عبد القادر سلاحي *

(*) أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب واللغات - جامعة تلمسان - الجزائر

ملخص البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى توجيه بعض ألفاظ التضاد في كتاب الله تعالى على النحو الذي انتهى إليه الفراء (ت ٢٠٧هـ) في كتابه القيم «معاني القرآن»؛ وذلك بما يكفل سوق شواهد أخرى، نحو: (يُظُنُّونَ) ، و(الصَّريْم) ، و(أخفيها) ، و«سامدون» ، و(فَبَشِّرْهُمُ) ، وغيرها كثير ، ممَّا يجعل الأضداد ، في رأيه ، أقرب إلى المقلوب لفظه في كلام العرب ، والمزال عن جهته ، أو ما يجري مجرى التضاد أو المشترك أو في السلب أدخل ، وحمّل ما ثبتت ضدّيته في لغة العرب ووافق القرآن بوجه على التوسّع في المعنى ، أو تداخل اللهجات أو التفاؤل وغيرها من العلل؛ متجاوزاً بذلك الوقوف على بعض ، ممَّا عمد بعض المفسّرين إلى الوقوف عليه منها ، من مثل: (يَشْرِي) ، و(أَسْرُوا) ، و(عَفَوا) ، و(تهجّد) ، وعدم قوله بالتضادّ فيها، وهو سبب يضاف إلى كونها لا تشكّل الهدف الأساس من وراء تأليفه للكتاب ، والمتمثّل في ((تفسير مُشكِل إعراب القرآن ومعانيه)) ، فكان بذلك إلى مذهب الاعتدال في أمرها أميل .

تقديم:

أحمدك اللهم حمداً أنت أهله، وتبارك اسمك، وعزّت كلمتك، وأصلّي على محمد نبي الهدى ، وعلى آله الطّيبين الطّاهرين إلى يوم الدّين .
أمّا بعد :

فإنّنا مقبلون على كلام الله - جلّت عظمتة-لنتتبّع ظاهرة من الظواهر اللغوية ، التي كثر الحديث عنها في العربية عموماً ، والقرآن الكريم على وجه الخصوص، وهي ظاهرة « التضاد» .

و الأضداد، ومنها : التضادّ، من خصائص المفردة اللغوية ، وهي إلى «المشترك اللفظي» أميلُ ، من حيث كان بينهما تلازم وخصوص، من حيث كان الاختلاف فيهما أعمّ من التضادّ: فكلّ تضادّ خلافٌ وليس كلّ خلاف تضاداً.

وموضوع المفردة في القرآن الكريم : موضوع واسع، ومتشعبٌ، غير أنّنا آثرنا أن نبحث في هذا الموضوع ، فالمفردة الواحدة التي قد تدلّ على الشيء ونقيضه-على قلّتها في لغة العرب-قد تحتاج إلى توجيه دلالة في القرآن الكريم، من حيث يعدّ من «المقلوب لفظه في كلام العرب، والمزال عن جهته» .

- تناولنا في المدخل الأضداد لغة، واصطلاحاً ، وآراء علماء اللغة فيه بين مثبت ومُنكر ومعتدل في وقوعه في لغة العرب . ومنزلة الفراء بينهم .

- أمّا القسم النظري: فجاء ترجمة للفراء وتعريفاً بكتابه الجليل «معاني القرآن» .

- أمّا القسم التطبيقي: فكان توجيهاً لألفاظ التضادّ في «معاني القرآن» من منطلق ما انتهى إلى علم الفراء ، موازنين بين آرائه فيها وبين اجتهادات مفسّرين آخرين ؛ وذلك بغية التوصل إلى تقرير موقف الفراء من ظاهر التضادّ، في القرآن خاصة، وفي لغة العرب على وجه العموم، فبحثنا في أسباب عدم وقوعه في القرآن الكريم ، معلّين لما وافق فيه العربية بوجه من الوجوه .

- وذيّلنا بحثنا بخاتمة ضمّت خلاصة النتائج المتوصّل إليها والتوصيات

المقترحة، مع ذكر فهرس المصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

ولعلنا نستطيع القول: إننا حاولنا ذلك كله ورائدنا في ذلك واجبنا اتجاه كتب الله الحكيم ، ولغتنا العريقة، فإن أصبنا فالحمد لله وحده وإن جانبنا الصواب ، فحسبنا أنها محاولة تقومها القراءة ، والملاحظات السديدة .

الأضداد بين اللغة والاصطلاح وموقف العلماء منها بين الماضي والحاضر:

عرّف اللغويون الأضداد بأنها جمع ضدّ، وهو: كلُّ شيءٍ ضادٌّ لشيءٍ ليغلبه. فالبياض ضدّ السّواد، والموت ضدّ الحياة، والسّخاء ضدّ البخل، والشّجاعة ضدّ الجبن، إذا جاء هذا ذهب ذلك. (١)

وهو ما أكّده أبو الطيّب اللغوي^(٢) (ت ٣٥١ هـ) حين ذهب إلى أنّ: (كلُّ ضدٍّ ما نافاه).^(٣) كما أضاف خبراً تفصيلياً مفاده أن ليس كلّ ما خالف الشيء ضدّاً له، ألا ترى أنّ القوّة والجهل مختلفان وليسا ضدّين، وإنّما ضدّ القوّة الضّعف، وضدّ الجهل العِلْم. فالاختلاف أعمّ من التضادّ؛ إذ كان كلّ متضادّين مختلفين وليس كلّ مختلفين ضدّين^(٤)؛ لأنّ أحد المعنيين في الذهن يستتبع عادةً استحضار الآخر، فيجب أن نأخذ هنا لفظ (الضدّ) بالمعنى الذي يفيد المخالفة؛ لأنّ الاصطلاح العلمي إنّما ينصرف لهذا المعنى وحده؛

(١) ينظر: العين، ٦/٧، مادة (ضد) ولسان العرب، ٢/٢٦٣، مادة (ضدد) و الأضداد في كلام العرب، ص ١.
(٢) هو عبد الواحد بن عليّ أبو الطيّب اللغوي الحلبيّ، أحد العلماء المبرزين والمتفنين بعلميّ اللغة العربية، أصله من عسكر مكرّم. قدّم حلب، وأقام بها إلى أن قُتل في دخول الدّمستق حلب سنة ٣٥١ هـ. أخذ عن أبي عمر الرّاهد (غلام ثعلب) (ت ٣٤٥ هـ). كان بينه وابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) منافسة. وهو صاحب التنصنيف الجليلية، وقد ضاع أغلبها، نحو: مراتب النّحويين، وشجر الدرّ. وقد وصل إلينا منها: الإتياع، الإبدال، الأضداد في كلام العرب. ينظر: بغية الوعاة، ٢/١٢٠.

(٣) الأضداد في كلام العرب، ١/١.

(٤) المصدر السابق نفسه.

لذا عدَّ القدماء الأضداد نوعاً من المشترك لقول ابن الأنباري^(١) (ت ٣٢٨ هـ) مثلاً في صدر خطبة كتاب الأضداد: ((هذا كتابُ ذكر الحروف التي تُوقَعُها العربُ على المعاني المتضادَّة ، فيكونُ الحرف(الكلمة) منها مؤدِّياً عن معنيين مختلفين)).^(٢) وعلى هذا ف((المشتركُ يقعُ على شيئينِ ضِدِّينِ وعلى مختلفينِ، فما يقعُ على الضِدِّينِ كالجَوْنِ والجلِّ، وما يقعُ على مختلفينِ غيرِ ضِدِّينِ كالعينِ))^(٣)

وإلى مثل ذلك ذهب سيبويه^(٤) (ت ١٨٠ هـ)^(٥)، وقطرب^(٦) (ت بعد ٢٠٧ هـ)^(٧)، وأبو حاتم

(١) هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشر بن الحسن الأنباري، ولد سنة ٢٧١ هـ. كان من أعلم الناس بالنحو والأدب، وأكثر أحفظ من تقدم من الكوفيين، يملئ من حفظه؛ لا من كتاب. ومريض يوماً فعاده أصحابه، فرأوا من انزعاج والده أمراً عظيماً، فطُلبوا نفسه، فقال: كيف لا أنزعج وهو يحفظ جميع ما ترون؟ وأشار إلى خزانة مملوءة كتباً، وكان مع حفظه متواضعاً زاهداً، سمع من ثعلب (٢٩١ هـ)، وغيره كثير، وكان صدوقاً ديناً خيراً من أهل السنة. وكان يأخذ الرُطْبَ فيشمه، ويقول: إنك لطيب؛ ولكن أطيّب منك حفظاً ما وهب الله لي من العلم. توفي ببغداد يوم عيد الأضحى بعد أن أملى كتباً كثيرة؛ منها: غريب الحديث، والهيات، والمشكل، أدب الكاتب، والآمات، وشرح شعر زهير والأضداد، وهو من الكتب التي وصلت إلينا. ينظر: بغية الوعاة، ٢/ ٢١٢-٢١٤ وطبقات النحويين واللغويين، ص ١٥٣-١٥٤ ووفيات الأعيان، ٤/ ١٥٢.

(٢) الأضداد، ابن الأنباري، ص ١.

(٣) المزهر، ١/ ٣٨٧.

(٤) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر الملقَّب بسببويه: إمام النحاة، وأول من بسط القول والتأليف فيه، بعد أن تتلمذ على الخليل وأخذ عنه معظم كتابه (ت ١٧٥ هـ) فعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل. ولد في إحدى قرى شيراز سنة ١٤٨ هـ، وقدم البصرة، فلزم الخليل. وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألف كتابه الذي سمَّاه الناس «قرآن النحو» له كثير من المناظرات، أهمها: تلك التي جمعته بالكسائي (١٨٩ هـ) واشتهرت بالمسألة الرُّنْبُورية. كان شاباً نظيفاً جميلاً، وكان في لسانه حُبْسَةٌ، وقلمه أبلغ من لسانه، توفي سنة ١٨٠ هـ بشيراز قسبة فارس. ينظر: مراتب النحويين، ص ٧٩ وبغية الوعاة، ٢/ ٢٢٩-٢٣٠ ووفيات الأعيان، ٣/ ٤٠٦.

(٥) الكتاب، ١/ ٢٤.

(٦) هو محمد بن المستنير أبو علي، يعرف بقطرب، مولى سلم زياد. أخذ عن يونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) وعيسى بن عمر (ت ٤٩٦ هـ). لازم سببويه (ت ١٨٠ هـ)، وكان يُدَلِّجُ إليه، فإذا خرج رآه على بابه، فقال له: ما أنت إلا قطرب ليل، فلُقب به. ويروى أنه لم يكن ثقةً في اللغة، مع أنه كان حافظاً، كثير النوادر والغريب، وله: «كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية» و«مثلثات قطرب»، وهما من الكتب التي وصلت إلينا. توفي سنة ٢٠٧ هـ. ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٩ ومراتب النحويين، ص ٨٥ و بغية الوعاة، ١/ ٢٤٢-٢٤٣ ووفيات الأعيان، ٤/ ١٢٨-١٢٩.

(٧) الأضداد، قطرب، ص ٢٤٤.

السَّجِسْتَانِي^(١) (ت ٢٥٥هـ)^(٢)، والمبرِّد^(٣) (ت ٢٨٥هـ)^(٤)، وابن فارس^(٥) (ت ٣٩٥هـ)^(٦)

(١) هو سَهْل بن محمد بن عثمان بن يزيد أبو حاتم الجشمي السَّجِسْتَانِي ، من ساكني البصرة (نسبة إلى سَجِسْتَان أو سَجِسْتَانَة ، قرية من قُرى البصرة). كان إماماً في علوم القرآن واللغة والشعر ، أخذ عن أبي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ) وأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ) والأصمعي (ت ٢١٣هـ)، وأخذ عنه : ابن دُرَيْد (ت ٣٢١هـ) والمبرِّد (ت ٢٨٥هـ) وغيرهما. كان أبو حاتم في نهاية الثقة والإثقان والنهوض باللغة والقرآن، مع علم واسع بالإعراب أيضاً، وبصره بالآثار وكتبه في نهاية الاستقصاء والحسن والبيان، مع دُعابة ، له تصانيف كثيرة في اللغة ، منها : «كتاب الأضداد» الذي وصل إلينا بتحقيق المستشرق الألماني أوغست هفنر ضمن ثلاثة كتب في اللغة ، كما ألف في النحو والقراءة. وكانت وفاته بالبصرة سنة ٢٥٥هـ على الأرجح. ينظر: مراتب النحويين، ص ١٠٦-١٠٧ وبغية الوعاة، ١/٤٠٦، وطبقات النحويين واللغويين، ص ٩٤.

(٢) الأضداد، أبو حاتم السَّجِسْتَانِي ، ص ٧٥.

(٣) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري أبو العباس المبرِّد ، بكسر الراء ، أي: المثبت للحق، فغيره الكوفيون ففتحوا الراء؛ كان أبو العباس الذي ولد سنة ٢١٠هـ إمام العربية ببغداد في زمانه، أخذ عن أبي عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ) ، وأبي حاتم السَّجِسْتَانِي (ت ٢٥٥هـ) ، وكان شاعراً فصيحاً بليغاً مفوهاً، ثقة أخبارياً علامة، صاحب نوادر وظرافة، وكان جميلاً ، لا سيما في صباه ، من آثاره: معاني القرآن، والمقتضب ، والكامل في اللغة والأدب، والمقصود والممدود، واشتقاق وإعراب القرآن، وما اتفق لفظه واختلف معناه، وطبقات النحويين البصريين. ينظر: بغية الوعاة، ٢٦٩-٢٧٠ وطبقات النحويين واللغويين، ص ١٠١-١١٠ ووفيات الأعيان، ٤/١٢٩.

(٤) ما اتفق لفظه واختلف معناه، ص ٣-١١.

(٥) هو أبو الحسين زكريا القزويني الرّازي. من أئمة اللغة والأدب، له رسائل أنيقة، ومسائل في اللغة يعاين بها الفقهاء، وكان كريماً جواداً لا يُبقي شيئاً، ربّما سئل فيهب ثياب جسمه، وفرش بيته. أصله من قزوين، وأقام مدةً في همدان، ثم انتقل إلى الري ومات فيها. قرأ عليه الصّاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) وبديع الزّمان الهمداني (ت ٩٨هـ) وغيرهما ، له تصانيف كثيرة، منها: الجمل ، ومعجم مقاييس اللغة، وهما معجماً ألفاظ ، الأول مختصر والثاني مفصل، ومتخبر الألفاظ، وهو معجم معاني، والصاحبي في فقه اللغة، وحلية الفقهاء، وكفاية المتعلمين في اختلاف النحويين، وكتاب الليل والنهار، وأصول الفقه. وينظر: معجم الأدباء، ٤/٨٠-٩٠ ووفيات الأعيان، ١/٣٢-٣٣ وإنباه الرواة على أنباه النحاة، ١/٨٦.

(٦) الصاحبي في فقه اللغة، ص ٩٩.

، وأبو علي الفارسي^(١) (ت ٣٧٧هـ)^(٢) وبعض المحدثين^(٣).

وتجدر الإشارة - هنا - إلى أنّ المحدثين من لغويي العرب قد قسّموا التضادّ إلى أنواع بعد أن وضعوا شروطاً ومقاييس يُحدّدون بها ألفاظه، ومن بين هذه المقاييس: (٤)

ضرورة التمييز بين اللهجات والمستويات المختلفة: فد«السُدفة» في لغة تميم الظُّلْمَة وفي لغة قيس الضُّوء، وهذا ليس بضدّ عند المحدثين؛ لأنّهم يشترطون أن يكون استعمال اللغة في المعنيّين في لغة واحدة.

تبين المعنى المركّب الدّال على شيئين في الوقت ذاته: وعلى هذا فدلالة «الجون» على الأسود والأبيض في وصف الحمار الوحشيّ يعني: أنّه مخطّط، وليس لكون الكلمة تدل على لوئين ضدّين.

مراعاة دلالة بعض الألفاظ على العموم: فكلمة (إنسان) تدل على الرّجال، كما تدلُّ على النّساء، وهذا ليس بضدّ عند المحدثين.

التمييز بين الكلمة في التراكيب المختلفة: فالتركيب (راغ على) أي: أقبل، و(راغ

(١) هو أبو الحسن بن أحمد بن عبد الغفّار بن محمد بن سليمان بن أبان، أبو عليّ الفارسيّ الفسّويّ النّحوي، ولد في فسّ، وهي مدينة من أعمال خراسان سنة ٢٢٧هـ، من أب فارسيّ، وأمّ عربية من قبيلة سدوس شيبان. كان أحد زمانه في علم العربية. أخذ عن الزّجاج (ت ٣١١هـ) وابن السّراج (ت ٣١٦هـ)، وغيرهما، وطوّف بلاد الشّام. وبرع من طلبته جماعة كابن جنّي (٣٩٢هـ) الذي حكى عنه قوله: أخطىء في مائة مسألة لغوية ولا أخطىء في واحدة قياسية، وأثنى على ما كان يستروح إليه من مسائل لغوية في كتابه الخصائص. تقدّم عند الدّولة؛ وله صنّف الإيضاح في النّحو، والتكملة في التصريف. من آثاره: التّدكرة، والمسائل العضديّات، وتعليقة على كتاب سيبويه، والمسائل الحليّة. ولم يقل من الشّعْر إلا ثلاثة أبيات، وهي:

وَحَضَبُ الشَّيْبِ أَوْلَى أَنْ يُعَابَا حَضِبَتِ الشَّيْبَ لَمَّا كَانَ عَيْبَا
وَلَمْ أَحْضِبْ مَخَافَةَ هَجْرٍ خَلَّ وَلَا عَتَبًا حَشِيَّتٌ وَلَا عَتَابَا
وَلَكِنَّ الشَّيْبَ بَدَأَ دَمِيمَا فَصَيَّرْتُ الْخَضَابَ لَهُ عِقَابَا

ينظر: بغية الوعاة، ١/٤٩٦-٤٩٨ وطبقات النحويين واللغويين، ص ١٢٠.

(٢) ينظر: المخصص، ١٣/٢٥٨-٢٥٩ والمزهر، ١/٣٨٧.

(٣) ينظر: دراسات في فقه اللغة، ٣٠٧ والمشارك اللفظي، نظريّة وتطبيقاً، ص ٣٣ و علم الدلالة، ص ٣٠١-٣٠٣.

(٤) ينظر: مدخل إلى علم اللغة، ١٥٣ و علم اللغة بين القديم والحديث، ص ٢٦٦.

عن) لا أي: ولَّ مختلفان، فلا يُقال له «راغ» إنها ضدّ.

وجود معنيين مختلفين للحدث الواحد بسبب رؤيتين متلفتين للحدث نفسه:
فالفعل (فَتَحَ) في العبارة «فُتِحَتِ الْقَنْطَرَةُ»، يعني أنها فُتِحَتْ لمرور السُفْنِ في حين أنها
أُغْلِقَتْ أمام السيَّارات، وهذا ليس بضدّ.

على أن علماء العرب القدماء أفاضوا في الحديث عن التضادّ بين مُثَبِّت له ومُنْكَرله
مطلقاً؛ ولعلّ الدافع الحقيقي وراء مذهب الإنكار هذا هو انقلاب اللغويين إلى المكاثرة
في تصيّد الأضداد وجمعها بعد أن كانت تتسم بالقلّة و الظّرافة، فإذا أمعنا النّظر في
أغلب ما أحصاه قطرب^(١) منها أمكننا وضع معظمها في دائرة المشترك تارةً، وأخرجنا
بعضها عنها أحياناً أخرى، والأبلغ منه تعسّفاً ما ذهب إليه قطرب من أنّهم ((قالوا
في التفسير: بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ أَي: سَوْدَاءُ)).^(٢) والشّاهد في ذلك: قوله تعالى: ﴿بَقَرَةٌ
صَفْرَاءٌ﴾^(٣) وقوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَلَّتْ صُفْرٌ﴾^(٤) ولا يمكن أن نقف كثيراً عند تأويل
الآيتين؛ لأنّ أدنى تأملٍ يُخْرِجُ اللفظ من باب الأضداد؛ لأنّه ((يُقَالُ: جَمَلٌ أَسْوَدٌ:
إذا كان جسده أسوداً وأذنه صفراءً، وكذلك مَنْخَرُهُ وَأَرْفَاغُهُ^(٥) صُفْرٌ فَهُوَ الْأَصْفَرُ
وهو كلامُ العرب)).^(٦) وقال ابن سيده^(٧) (ت ٤٥٨ هـ) نقلاً عن أبي زيد^(٨) (ت ٢١٥ هـ)

(١) أحصينا في كتاب قطرب خمسة وخمسين ومئة من الأضداد.

(٢) الأضداد، قطرب، ص ٢٧٨.

(٣) من سورة البقرة: الآية ٦٩.

(٤) سورة المرسلات: الآية ٣٣.

(٥) الأرفاغ: أصول الأفضان. ينظر: القاموس المحيط، ١١٠/٣، مادة (الرّفغ).

(٦) الأضداد، أبو حاتم السجستاني، ص ١٠٢.

(٧) هو أبو الحسن عليّ بن سيده المرسي، الأندلسي، عاش حياته التي بلغت ستين سنة (٣٩٨-٤٥٨ هـ)
كفيماً لأب كفيف، عرف بقوة ذاكرته، وحده مزاجه، وقلة تلاميذه، وكثرة حله وترحاله. قضى نحبه
ب«دانية» بالأندلس بعد أن خلف آثاراً لغوية ومعجمية، يعدّ «الحكم» و«المخصّص» من أهمّها. ينظر: وفيات
الأعيان، ٢٨٩/٣، ومعجم الأدياء، ١٢/٢٣١، وصاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ١٨٤-١٨٥.

(٨) هو سعيد بن أوس بن ثابت بن العتيق بن بشر بن قيس بن زيد أبو زيد الأنصاري، من الأنصار، وهو
من رواة الحديث، كان ثقة مأموناً، إماماً نحوياً، غلبت عليه اللغة والنّوادر والغريب، روى عن أبي
العلاء (ت ٥٤ هـ)، ورؤية بن الحجاج (٤٥ هـ)، وأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، وأبي عبيد القاسم
ابن سلام (ت ٢٢٤ هـ)، وطائفة، كان أحفظ أهل زمانه وأوسعهم رواية، وأكثرهم أخذاً عن البادية. وكان

قوله: ((الأصْفَرُ من الإِبِلِ: الذي يَسْوَدُ أْبْضُهُ^(١) وَتُنْفِذُهُ شَعْرَةً بِيضَاءً))^(٢). ولعلَّ في ذلك ما يُفسَّرُ عدم ارتياح أبي حاتم السَّجِسْتَانِي، وهو ممَّن أَلَّفَ في الأضداد ، إذ رأى أَنَّهُ لا يعْبَرُ عن هذه المختارات التي جمعوها تحت هذا الاسم ، فألَّفَ أبو حاتم كتاباً سمَّاه (كتاب المقلوب لفظه في كلام العرب، والمزال عن جهته، والأضداد)،^(٣) ثمَّ سار على هديه ابن قتيبة^(٤) (ت ٢٧٦هـ) وفي تأويل مشكل القرآن وتفسير غريبه ونفرَّ من الدَّارسين المحدثين.^(٥)

على أَنَّ الاعتدال إزاء ما ورد من ألفاظ التضاد في كتاب الله تعالى لم تكن كتب التفسير منه خلاء، و((معاني القرآن)) للفرَّاء أحدها. وهو ما سنعرض له في القسم التطبيقي من الدِّراسة.

أَبُوهُ أَوْسٌ مَحْدَثًا، وَجَدَهُ ثَابِتٌ مَنْ شَهِدَ أُحُدًا وَالْمَشَاهِدَ بَعْدَهَا، وَهُوَ أَحَدُ السِّتَةِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. من تصانيف [أي زيد: لغات القرآن، والتلثيث، والقوس والترس، والمياه، وبيوتات العرب، والإبل والشاء، وخلق الإنسان، والمنطق لغة، والنوادر، وهو من الكتب التي وصلت إلينا. توفي رحمة الله عليه بالبصرة. ينظر: مراتب النحويين، ص ٥٧-٥٨، وطبقات النحويين واللغويين، ص ١٦٥-١٦٦، وبغية الوعاة، ٥٨٢-٥٨٣، ووفيات الأعيان، ١٨٩/٢.

(١) الأَبْضُ: باطنُ المِرْفَقِ: ينظر: القاموس المحيط، ٣٣٥/٢، مادة (أبض).

(٢) المخصص، ٥٥/٧، (باب ألوان الإبل).

(٣) الأضداد، أبو حاتم السجستاني، ص ٧٢ وينظر: عوامل التطور اللغوي، ص ٧٩-٨١.

(٤) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد المروزي الدينوري، نزيل بغداد؛ ولد سنة ٢١٢هـ. كان رأساً في العربية والأخبار وأيام الناس، ثقةً ديناً فاضلاً، إلا ما كان منه من أشياء يتسرَّع فيها لا يقوم بها، نحو تعرُّضه لتأليف كتابه في النحو، وكتابه في «تعبير الرؤيا»، وكتابه في «معجزات الرسول ﷺ وعلى آله»، ونحو ذلك؛ ممَّا أزرى به عند العلماء، وإن كان قد نفقَّ عند العامة. ولي قضاء الدينور، وأخذ عن أبي حاتم السَّجِسْتَانِي (ت ٢٥٥هـ) والرياشي البصري (ت ٢٥١هـ) وحدث عنه ابن درستويه (ت ٢٤٧هـ) وابنه القاضي أحمد. من تصانيفه: الأنواء، تفسير غريب القرآن، وتأويل مشكل القرآن، وغريب الحديث، وعيون الأخبار، وهي من الكتب التي وصلت إلينا وصحت نسبتها إليه. (ينظر: بغية الوعاة، ٦٢-٦٣ ومراتب النحويين ص ١١٣، وطبقات النحويين واللغويين، ص ١٨٣). وقد نسب إليه كتاب «النعم (الإبل) والبهائم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض» خطأ، وأثبت صحة نسبه إلى أبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) الأب مورييس بويج في خاتمة تحقيقه للكتاب بحوليات جامعة القديس يوسف، المجلد ٣، ١٩٠٨م، ص ١٢٨-١٣٢.

(٥) ينظر: تاريخ آداب العرب، ٢٠٠/١-٢٠١ والتطور اللغوي التاريخي، ص ٩٨-٩٩ و في اللهجات العربية، ص ٢٠٤-٢٠٨ والأضداد لمنصور فهمي، ص ٢٤٣-٢٤٤.

الفراء وكتابه « معاني القرآن » :

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور أو مروان الديلمي، (نسبة إلى إقليم الديلم في بلاد فارس)، المعروف بالفراء. وقيل له كذلك؛ لأنه كان يفري الكلام، أي يحسن تقطيعه وتفصيله. ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ. كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي (ت ١٨٩ هـ)، أخذ عنه وعليه اعتمد، وأخذ عن يونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ)، ويقال: إنه كان يلزم كتاب سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، ثم استقر ببغداد. كان محباً للكلام ميلاً إلى الاعتزال، متديناً، ورعاً. كان أكثر مقاماً ببغداد، دائم التردد على الكوفة، يُفرق على أهله ما جمعه. كان شديد المعاش، لا يأكل حتى يمسه الجوع، وجمع مالا خلفه لابن له شاطر. وكانت وفاته في طريق عودته من مكة سنة ٢٠٧ هـ.

صنف الفراء تأليف عدة، ومن أهم آثاره التي وصلت إلينا منها أو فقدت مع الزمن: فيما تلحن فيه العامة، واللغات، والتثنية في القرآن، وآلة الكتابة، والمقصود والمدود، وفعل وأفعل، والمذكر والمؤنث، ومعاني القرآن موضوع دراستنا.^(١)

فقد حظيت (معاني القرآن) بتأليف مستقلة، وهي كتب ألفها أصحابها بطريقة تختلف عن طريقة المفسرين للقرآن، وذلك أن كتب المعاني تفسر الآية تفسيراً لغوياً باحثة عن المقصود بوساطة النحو واللغة. وكتب معاني القرآن إنما هي في حقيقتها تفاسير لغوية.^(٢)

وعلى الرغم من أسبقية الأخفش الأوسط^(٣) (البصري) (ت ٢١٥ هـ) على الفراء

(١) ينظر: بغية الوعاة، ٢/٣٣٣ وطبقات النحويين واللغويين، ص ١٣١-١٣٣.

(٢) ينظر: مقدمة تحقيق معاني القرآن، الأخفش، ١/٥٤-٥٥.

(٣) هو أشهر الأخافش المشهورين. وهو: سعيد بن مسعدة الجاشعي، مولى بني مجاشع؛ يكنى أبا الحسن. ويعرف بالأخفش الصغير أو الأصغر؛ لأن الأخفش الكبير عبد الحميد بن عبد المجيد، ويكنى أبا الخطاب (ت ١٥٧ هـ أو ١٧٧ هـ) فلما ظهر أبو الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر أو الصغير (ت ٣١٥ هـ) أيضاً صار سعيد بن مسعدة وسطاً. سكن البصرة، وكان أجمع، لا تنطبق شفاته على لسانه. قرأ النحو على سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، وكان أسن منه، صحب الخليل (ت ١٧٥ هـ) قبل صحبته لسيبويه. وكان معلماً لولد الكسائي (ت ١٨٩ هـ)، وكان معتزلياً، وروى عنه أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) ودخل بغداد وأقام بها مدة، وروى وصنف بها: الأوساط في النحو، ومعاني القرآن، والمقاييس

(الكوفي) في التأليف في المعاني^(١) إلا أن ذلك لم يُثْنِ القَرَاءَةَ عن التماسه والانتفاع بفوائده الجمّة. فهو (كتاب لم يعمل قبله ولا بعده مثله ولم يتهيأ لأحد من الناس جميعاً أن يزيد عليه شيئاً)).^(٢)

وقد نهج الفراء في كتابه (معاني القرآن) تقريباً المنهج نفسه الذي سلكه أبو عبيدة^(٣) (ت ٢١٠هـ) في مجازة، وإن كان الطابع النحوي هو الغالب على تصنيفه؛ لأنّ الرّجل كان من أئمّة النّحو الكوفيين في عصره.^(٤)

هذا ، ويعدُّ الفراء من أئمّة اللغة الأفضان. فكتابه (معاني القرآن) يدلُّ على إلمامه بفرائد اللغة الجمّة في اللغة والنّحو والغريب وغيرها. ومن بين المسائل التي نالت حظاً غير يسير في تفسير الفراء ظاهرة الأضداد، والفراء صاحب رأي فيها.

في النّحو ، والمسائل البير، والقوافي، والأصوات، وغير ذلك. (ينظر: طبقات النّحويين واللّغويين، ص ٧٢-٧٤ وبغية الوعاة، ١/ ٥٩٠-٥٩١ ووفيات الأعيان ٢/ ٣١٧-٣١٨). والخَفَشُ: صَغُرَ العَيْنُ وَضَعْفُ البَصَرِ خَلَقَةً ، أو فَسَادٌ فِي الجفونِ بلا وَجَعٍ ، أو إبصارٌ بالليل دون النّهار ، وفي يومٍ غيمٍ دون صَحْوٍ. ينظر: القاموس المحيط، ٢/ ٢٨٣، مادة (الخفّاش).

(١) طبع معاني القرآن للأخفش الأوسط بتحقيق فايز فارس في طبعة أولى ، ثمّ ثانية عن داري البشير والأمل، سنة ١٤٠٠هـ-١٩٧٩هـ أو ١٤٠١هـ-١٩٨١هـ، في جزأين؛ ثمّ بالكويت في طبعة ثالثة، سنة ١٩٨١م في مجلدين، وهي الطبعة المعتمدة في بحثنا.

(٢) طبقات النّحويين واللّغويين ، ص ١٣٢.

(٣) هو أبو عبيدة معمر بن المنثى النّيمي، مولى بني نَيْمٍ ؛ نَيْمٌ قُرَيْشٌ ، رهط أبو بكر الصديق ، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) و يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ) النّحو والشّعر والغريب. ولد البصرة سنة ١١٢هـ على الأرجح ، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد ، وقرأ عليه أشياء من كتبه ، وكان من أجمَعِ النّاسِ للعلم ، وأعلمهم بأيام العرب وأخبارهم ، وأكثر النّاسِ رواية ، وهو أول من صنّف في غريب الحديث ، وعن منزلته العلمية يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) : « لم يكن في الأرض خارجيًّا (لأنّه كان يُقال : إنّه كان خارجيًّا يرى رأي الخوارج الإباضية ، وكان وشعوبياً) ولا جماعياً أبصر منه بجميع العلوم من أبي عبيدة ». صنّف المجاز في غريب القرآن ، والأمثال في غريب الحديث ومعاني القرآن ، وأيام العرب ، وخلق الإنسان ، وما تلحن فيه العامة وغيرها كثير . ينظر: طبقات النّحويين واللّغويين، ص ١٧٥-١٧٨ وبغية الوعاة، ٢/ ٢٩٤-٢٩٦ والفهرست، ص ٢٣٩ والبيان والتبيين، ١/ ٣٣١ ووفيات الأعيان، ٤/ ٤٤٨. وإذا كان لنا أن نبدي رأياً في أمر شعوبية أبي عبيدة وفق ما رآه الجاحظ، فإننا نستبعد هذا الأمر ؛ لأنّه لا يتعدى الأحاد، كما لا يعدو أن يكون ردّ فعل لحادثة معينة أو لأكثر من حادثة. خاصّة أنّنا لا نعرف الظروف التي برز فيها مثل هذا التفصيل.

(٤) ينظر: بغية الوعاة، ٢/ ٢٣٣ ومعجم المفسّرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ٢/ ٣٧٠.

توجيه الأضداد في معاني القرآن:

اهتمَّ الفراء في معانيه بألفاظ التضادِّ ، نابذاً منكر التأويل ومنحول التفسير الذي وَقَعَ الغلطُ فيه من جهة المفسِّرين . فقد ساد الاعتقاد قبله باشمال القرآن الكريم على بعض ألفاظ التضادِّ ، فذكر حروفاً عمد إلى تأويلها وتفسيرها حملاً على المقلوب من كلام العرب كالذي عمد إليه أبو حاتم السَّجستاني، وذكر حروفاً أخرى لم يحصل عليها إجماع المفسِّرين ، سالكا مذهباً يقود إلى إثباتها على نحو يعلِّ وجود هذه الظاهرة ، ولا ينفىها ، وهو ما يفسح المجال أمام الاطلاع على مظاهر التجدُّر والتوسُّع الذي أصاب الألفاظ باختلاف القائلين بها، والتي حافظ القرآن الكريم على تعددها اللهجي حين نزل به ، فأمكنه بذلك أن يسوق ألفاظاً امتازت بخاصية مزدوجة ، فاستعملت بوجهين متضادِّين ، فيمكن تفسيره بالعلتين اللَّتين فسَّر بهما وجود الأضداد في العربية ، وهما تداخل المعنيين على جهة الاتِّساع وتداخل اللهجات ^(١) ، وهما في رأينا من أقوى علل نشأة الأضداد .

فمما أرجعه إلى اختلاف اللهجات لفظ (عَسَعَسَ) في قوله تعالى: ﴿وَأَلَيْلَ إِذَا عَسَعَسَ﴾ ^(٢) يقول: ((اجتمع المفسِّرون على أنَّ معنى (عَسَعَسَ) أدبَر ، وكان بعض أصحابنا يزعم أنَّ (عَسَعَسَ) دنا من أوَّلِه وأظلمَ . وكان أبو البلاد النَّحوي ينشد: ^(٣)

عَسَعَسَ حَتَّى لَوْ يَشَاءُ ادَّنَا كَانَ لَهُ مِنْ ضَوْءِهِ مَقْبِسُ

يريدُ : إنَّ دَنَا ، ثُمَّ يُلْقِي هَمْزَةً إِنْ وَيُدْغِمُ الدَّالَّ فِي الدَّالِّ ، وكانوا يرون أنَّ هذا البيت مصنوعٌ)) ^(٤)

فالفراء لا يجوز أن يحمل لفظ (عَسَعَسَ) معنى (دَنَا) ؛ لأنَّه مخالفٌ لما أجمع عليه

(١) اشترط بعض اللغويين ألا يكون استعمال اللفظين المتضادِّين في لهجة واحدة ، ومنه قول ابن دريد (٣٢١هـ): ((والشَّعْبُ: الافتراق، والشَّعْبُ: الاجتماع ، وليس من الأضداد، وإنما هي لغة قوم)). ينظر: جمهرة اللغة ١، / ٢٩١-٢٩٢ مادة (شعب) والمزهر، ١/ ٣٩٦ .

(٢) سورة التكوير: الآية ١٧ .

(٣) نسبه القرطبي (ت ٦٧١هـ) إلى امرئ القيس . ينظر: الجامع لأحكام القرى، ١٩/ ٢٣٨ .

(٤) معاني القرآن، الفراء، ١٠٣/ ٣ .

المفسِّرون، مُضَعِّفًا من صحَّة البيت الحامل لهذا المعنى، ناسباً إيَّاه إلى الوضع؛ وهو ما عزَّزه الطُّبري^(١) (ت ٣١٠ هـ) حين قال: ((وأولى التَّأويلَيْنِ عندي قول من قال: معنى ذلك أدبَر، فدلَّ بذلك على أَنَّ القَسَمَ بالليلِّ مُدْبِرًا وبالنهَارِ مُقْبِلًا والعرب تقول: عَسَّسَ الليلُ وسَعَّسَ الليلُ: إذا أدبَرَ، ولم يَبْقَ منه إلَّا اليسير)).^(٢)

وواضحٌ أَنَّ الفراءَ يردُّ مبدأ التضادِّ الذي أورده أبو عبيدة في تفسير الآية السابقة، وقد جاء فيها: ((قال بعضهم: إذا أقبلت ظلمًا وُدَّ، وقال بعضهم^(٣): إذا ولى^(٤) ألا تراه قال: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾^(٥)، فدلَّ بذلك على أَنَّ ﴿عَسَّسَ﴾ تعني: ((أدبَرَ بلغة قُرَيْش))^(٦)، والثاني لغيرها، إلَّا أننا نرجِّح معنى الإدبار، لدليلنا موازنة اللفظ بمثله، والتركيب يشبهه في أسلوب القرآن الكريم، الأوَّل هو الذي بين أيدينا ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ﴾^(٧) و﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾^(٨) والموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا دَبَّرَ﴾^(٩) و﴿وَالصُّبْحُ إِذَا سَفَرَ﴾^(١٠)، فبين القولين الكريمين تقاربٌ واضحٌ من حيث اللفظ والموضوع والصورة، وعَسَّسَ تُقابلها أدبَرَ، وهو ما نرجِّحه في معنى اللفظ، ولم يردِّ في مواضع أخرى من كتاب الله تعالى، فنستشفُّ منه معنى آخر^(١١)، وهو ما ذهب إليه الفراءُ قبل ذلك.

(١) هو أبو الحسن أو الحسين بن القاسم الطُّبري، الفقيه الشافعي؛ أخذ الفقه عن أبي علي بن أبي هريرة (ت ٣٤٥ هـ)، وعلَّق عنه التعليقة المشهورة المنسوبة إليه، وسكَنَ بغداد، ودرَّسَ بها بعد أستاذه أبي علي المذكور، وصنَّفَ كتاب «المحرَّر» في النَّظَر، وهو أوَّلُ كتاب صنَّفَ في الخلاف المجرَّد، وصنَّفَ كتاب «الإفصاح» في الفقه وكتاب «العُدَّة»، وهو كبير في عشرة أجزاء، وغيرها. تُوِّفِيَ سنة ٣٠٥ هـ. والطبري - هذه نسبة إلى طبرستان - وهي ولاية كبيرة تشتمل على بلاد كثيرة، أكبرها «أمل»، خرج منها جماعة من العلماء، والنسبة إلى طبرية الشَّام «طبراني». ينظر: وفيات الأعيان، ٢/ ٦١-٦٢ والبداية والنهاية ١٤/ ٣٣-٣٤.

(٢) جامع البيان، ٣/ ٧٩.

(٣) يقصد قطرب وقد نسبة إلى ابن عباس، رضي الله عنهما. ينظر: الأضداد، قطرب، ص ٢٦٦.

(٤) ينظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة، ٢/ ٢٨٧.

(٥) سورة التكوير: الآية ١٨.

(٦) اللغات في القرآن، ص ٥١.

(٧) سورة التكوير: الآيتان ١٧-١٨.

(٨) سورة المدثر: الآيتان ٣٣-٣٤.

(٩) التضاد في القرآن الكريم، ص ١٧٩-١٨٠.

و قد يأخذ الفراء في تأويل الآية بما اشتهر عن العرب - بدوهم وحضرهم -، ممّا يعبر عن منهج الكوفيين، والفراء أحدهم، في الاستشهاد.

ومن ذلك : تأويله لقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾^(١)، فقال: ((والمسجور في كلام العرب المملوء))،^(٢) وهو قول النمر بن تَوَلَب :

إِذَا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ وَالسَّاسِمَا

وقال بعضهم: المسجور الفارغ، قال أبو حاتم السجستاني في تخريج ذلك: «بلغني ذاك، ولا أدري ما الصواب، ولا أقول في ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾^(٣) شيئاً ولا ﴿وَإِذَا أَلْحَارُ سُحِرَتْ﴾^(٤)؛ لأنه قرآن فأتق به، وقالوا: قالت جارية بالحجاز: إن حوضكم مسجور ولم تكن فيه قطرة، قال أبو حاتم: يمكن أن يكون هذا على التّفوّل^(٥) كما يقال للعطشان رياناً وللملدوغ السليم، وقال ذو الرمة في المسجور، وهو يعني المملوء: ^(٦)

صَفَفْنَ الخُدُودَ والنُّفُوسُ نَوَاشِزٌ عَلَى ظَهْرِ مَسْجُورٍ صَخُوبِ الضَّفَادِعِ

وهو الشاعر نفسه الذي ذكر أبو حيّان الأندلسي^(٧) (ت ٧٤٥هـ) روى عن ابن

(١) سورة الطور: الآية ٦.

(٢) معاني القرآن، الفراء، ٣/ ٩١.

(٣) سورة الطور: الآية ٦.

(٤) سورة التكوير: الآية ٦.

(٥) التّفوّل والتفاؤل بمعنى . ينظر: القاموس المحيط، ٤/ ٢٨، مادة (الفال).

(٦) الأضداد، أبو حاتم السجستاني، ص ١٢٦.

(٧) هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الإمام أثير الدين أبو حيّان الأندلسي الغرناطي النَّفَرِيّ (نسبة إلى نفزة قبيلة من البربر) ولد بمدينة مطخشارش من حضرة بغرناطة سنة ٦٥٤هـ تتلمذ على يد شيوخ أجلاء في القراءة، وكان متقدماً في النحو، وأقرأ في حياة شيوخه بالمغرب، وسمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية والحجاز من نحو أربعمئة وخمسين شيخاً، فاشتهر اسمه وطار صيته فيه، وفي التفسير والعربية والأدب والتاريخ، أخذ عنه أكابر عصره، كابن عقيل (ت ٧٦٩هـ) وغيره كثير. وكان سبب رحلته من غرناطة أنّ حملته حدة الشيبية على التعرّض للأستاذ أبي جعفر بن الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جعفر بن الرّبير وقعة، فنال منه وتصدّى لتأليف الردّ عليه وتكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان، فأمر بإحضاره وتنكيله فاختلف، فركب البحر ولحق بالشرق، وكان أبو حيّان ثبناً صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتّجسيم، ومال إلى مذهب أهل الظاهر وإلى محبة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن الكريم. له من

عبّاس^(١) (ت ٦٨هـ)، رضي الله عنهما، قوله: ((خَرَجْتُ أُمَّتِي لَتَسْتَقِي، فَقَالَتْ: إِنَّ الْحَوْضَ مَسْجُورٌ، أَي فَارِعٌ... وَيُرَوَّى أَنَّ الْبَحَارَ يَذْهَبُ مَاوُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ))^(٢)، فيكون بذلك من الأضداد.

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، أَنَّ ﴿سُجِرَتْ﴾ تعني «جُمِعَتْ بِلُغَةِ خَنَعَمٍ»^(٣). ويقول أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾^(٤) و((تفجيرها من امتلائها، فتفجر من أعلاها، وتفيض على ما يليها، أي من أسفلها، فيذهب الله ماءها حيث أَرَادَ))^(٥).

نخلص من هذا إلى أننا أمام لفظة (سَجِر) التي صدقت على أكثر من معنيين، فكانت أقرب إلى المشترك منها إلى التضاد وهو ما يُسهّم في تبيد حيرة أبي حاتم بشأنها حين قال: ((بلغني، ولا أدري ما الصَّواب))^(٦) من حيث لا حاجة لتأويل المعنى على التفاؤل

التصانيف: البحر المحيط في التفسير والتذكرة، وهما من الكتب التي وصلت إلينا، وغيرهما كثير. ينظر: بغية الوعاة، ١/ ٢٨٢-٢٨٣ وشذرات الذهب، ١٤٥-١٤٦.

(١) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، يُكْتَبُ أبا العباس، وُلِدَ فِي الشَّعْبِ وَبَنُو هَاشِمٍ قَبْلَ خُرُوجِهِمْ مِنْ بَيْسِيرٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ. تَوَفَّى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنَوَاتٍ. وَكَانَ حَبْرَ الْأُمَّةِ، وَيَعُدُّ ثَانِي مَفْسِّرٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَسُمِّيَ بِالْبَحْرِ لِعِزَّةِ عِلْمِهِ، وَكَانَ عَمْرَ وَعُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَدْعُوَانَهُ، فَيُشِيرُ عَلَيْهِمَا مَعَ أَهْلِ بَدْرٍ، وَكَانَ يُفْتِي فِي عَهْدِهِمَا إِلَى أَنْ مَاتَ. وَكَانَ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ: الْعَبَّاسُ، وَعَلِيُّ السَّجَّادِ، وَالْفَضْلُ، وَمُحَمَّدٌ، وَنُبَايَةَ، وَأَسْمَاءُ. وَعَنْ وَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - جَاءَ عَنْ سَمَاكِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سَقَطَ فِي عَيْنِهِ الْمَاءُ فَذَهَبَ بَصَرُهُ، فَأَتَاهُ هَوْلَاءُ الَّذِينَ يَنْقُبُونَ الْعْيُونَ وَيُسِيلُونَ الْمَاءَ، فَقَالُوا: خَلَّ بَيْنَنَا، وَبَيْنَ عَيْنَيْكَ نَسِيلُ مَاءِهِمَا، وَلَكِنَّكَ تَمَكُّتَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ لَا تُصَلِّيَ يَعْنِي: قَائِمًا. قَالَ لَا وَاللَّهِ وَلَا زَكَاةً وَاحِدَةً، إِنِّي حَدَّثْتُ أَنَّهُ مِنْ تَرَكَ صَلَاةً وَاحِدَةً مَتَعَمِّدًا لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضِبَانٌ. تَوَفَّى ابْنُ عَبَّاسٍ بِالطَّائِفِ وَهُوَ ابْنُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ سَنَةً. وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: شَهِدْتُ جِنَازَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ بِالطَّائِفِ، فَلَمَّا وُضِعَ لِيُصَلَّى عَلَيْهِ جَاءَ طَائِرٌ أَبْيَضٌ حَتَّى دَخَلَ فِي أَكْفَانِهِ فَلْتَمَسَ فَلَمْ يُوْجَدْ، فَلَمَّا سُويَ عَلَيْهِ سَمِعْنَا صَوْتًا وَنَسَمِعُ صَوْتَهُ وَلَا نَرَى شَخْصَهُ: ﴿يَتَأَبَّأُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^(٧) أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً^(٨) فَادْخُلِي فِي عِبْدِي^(٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي^(١٠) (سورة الفجر: الآيات ٢٧-٣٠). ولما بلغ جابر بن عبد الله وفاة ابن عباس صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أعلم الناس، وأحلم الناس، ولقد أصيبت به الأمة مصيبة لا ترتق. ينظر: صفوة الصفوة، ١/ ٣٧٣-٣٧٤ وبالبدائية والنهاية، ٨/ ٢٩٥ والطبقات الكبرى، ٢/ ٣٦٥ ووفيات الأعيان، ٣/ ٤٩.

(٢) البحر المحيط، ٨/ ١٤٦.

(٣) اللغات في القرآن، ص ٥١.

(٤) سورة الانفطار: الآية ٣.

(٥) البحر المحيط، ٨/ ٣٣٦.

(٦) الأضداد، أبو حاتم السجستاني، ص ١٢٦.

أو غيره من العلل الملتزمة في تأويلها بالسُّخرية أو بمذهب الثنائية الذي ارتضاه بعض المحدثين ؛ ذلك أن الأشياء التي تُذكر في القَسَم من سورة الطُّور موجودة على حالها في النِّظام الكوني، وهذا يقودنا إلى القول - والله أعلم - : إِنَّ نَسَقَ الآيَاتِ فِيهَا كَذَلِكَ. (١)
 قال تعالى: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍ مَّنشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَعٌ ٧﴾. (٢) فالبحر لا يُسمَّى بحراً إلا إذا كان مملوءاً، ويأتي النعت بالمسجور لتأكيد الامتلاء، وهو ما ارتضاه الفراء بكل اطمئنان، لما عهده في لغة العرب سليقةً من أن (الظعينة) لا تكون ظعينة حتى تكون امرأة في هودج على راحلة. والقلم لا يكون قلماً إلا وقد برى وأصلح، وإلا فهو أنبوبة، و(الكوز) لا يقال له: كوزاً إلا إذا كانت له عروة، وإلا فهو كوب، ولا يقال للمائدة (مائدة) حتى يكون عليها طعام، وإلا فهي (خوان)، ولا يقال (وقوداً) إلا إذا اتقدت فيه النار، وإلا فهو (حطب)، ولا يقال (مغلغلة) إلا إذا كانت محمولةً من بلدٍ إلى بلدٍ، وإلا فهي (رسالة). (٣)

ويذهبُ الفراء في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَاءَهُمْ مَّالِكٌ﴾ (٤) إلى أن (وَرَاءَ) ((لا يمكن أن تكونَ بمعنى (أمام) إلا أن يكون)) (ذلك في المواقيت والشهور والأيام والدهر، كأن تقول: ورائك بردٌ شديدٌ لأنك أنت ورائه فجاز؛ لأنه شيء يأتي، فكأنه إذا لحقك صار من ورائك، وكأنك إذا بلغتَه صار بين يديك، وهو كقوله: ((من ورائه جهنم))، أي أنها بين يديه، فلذلك جاز الوجّهان)) (٥)، وقد أفاد ابن قتيبة من هذا التأويل فزاده إيضاحاً بقوله: ((كلُّ ما غابَ عن عينك فهو وراء، كان قدامك أو خلفك. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ

(١) التضاد في القرآن الكريم، ص ٤٩-١٠١.

(٢) سورة الطور: الآيات ١-٧.

(٣) ينظر: فقه اللغة وسر العربية، ص ٤٠-٤١ والصاحبي في فقه اللغة، ص ١٠٠ والمزهر، ١/٤٤٩ و المخصص، ١٠/٦٢، ٣٤، ١٥٦، ٦٦، ١١/٨٦، ٧٩.

(٤) سورة الكهف: الآية ٧٩.

(٥) ينظر: معاني القرآن، الفراء، ٢/١٥٧.

وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا ﴿١﴾، أي أمامهم))^(٢) وهو ما عدّه أحد الدارسين المحدثين من باب تساهل اللغويين في تكثير معاني اللفظ الواحد ، بحسب اختلاف مؤدّى المعنى باختلاف المواقع نحو تفسيرهم (وراء) بمعنى أمام^(٣) ، ولو فسّرت وراء - في رأيه - بمعناها الأصلي كان معنى الآية: كان خلفهم مَلِكٌ يتعقّب أصحاب السُّفُنِ فيغتصبُ سَفُنَهُمْ. ^(٤) ((ففي القرآن في معنى بَعْدٍ وَخَلْفٍ قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ^(٥) و: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ ^(٦) والموالي: هُمُ بَنُو الْعَمِّ ، وقول الْعَرَبِ: بَلَغَنِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ وَرَاءٍ، وفي القرآن الكريم في معنى قُدَّامُ قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا﴾ ^(٧)، يعني: قُدَّامَهُمْ وَأَمَامَهُمْ. حدّثني أبو عامر الْعَدَنِيُّ قال حدّثني سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَرَأَ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ^(٨)، أي من بين يَدَيْهِ، وهو كثيرٌ في القرآن)). ^(٩)

هذا ، ولا يبعد أن يكون الأمدي (ت ٣٧٠ هـ) قد استلهم منهجه في إبطال ضديّة (وراء) من الفراء وابن قتيبة ؛ إذ أنّه يكرّر قولهما ، فيقول: ((إنّما هي من الموارد والاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء خلفك كان أو قُدَّامَك)). ^(١٠) ؛ لذا جاز لنا بهذه الأوجه جميعها أن نخلص إلى ما انتهى إليه الفراء من ضرورة حجب الضديّة عن لفظة (وراء)، بل حرّي

(١) سورة الكهف: الآية ٧٩.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٨٩.

(٣) ينظر: الأضداد، قطرب، ص ٢٥٩.

(٤) ينظر: الأضداد، منصور فهمي، ص ٢٣٦.

(٥) سورة هود: الآية ٧١.

(٦) سورة مريم: الآية ٥.

(٧) سورة الكهف: الآية ٧٩.

(٨) سورة إبراهيم: الآية ١٧.

(٩) الأضداد ، أبو حاتم السجستاني، ص ٨٣.

(١٠) الموازنة في شعر أبي تمام والبحري، ١/٧٣ و١٧٣/١ و١٧٣/٢ و١٥٧/٢، وتأويل

مشكل القرآن، ص ١٨٩.

بنا أن نخرجها من الأضداد. (١)

كما أن (فوق) في قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٢) بمعنى: أكبر منها. ولا يمكن في رأي الفراء أن تنصرف إلى ما دونها؛ لأن ((البعوضة كأنها غايّة في الصغر والقلة، فأحبُّ إليّ أن أجعلَ (ما فوقها): أكبرَ منها، ألا ترى أنك تقول: يُعطى من الزكاة الخمسون فما دونها، والدّرهم فما فوقه، فيضيقُ الكلامُ أن تقول: فوقه فيهما أو دونه؛ فيهما. وأما موضعُ حُسْنِهما في الكلام: فإن يقول القائل: إن فلاناً لشريفٌ، فيقول السامعُ: وفوقَ ذلك؛ يزيدُ المدحَ. أو يقول: إنّه لبخيلٌ، فيقول الآخرُ: وفوقَ ذلك، يريدُ بكليهما معنى أكبرَ، فإذا عرفتَ أنتَ الرَّجُلَ، فقلتَ: دونَ ذلك؛ فكأنك تحطه عن غاية الشرف أو غاية البخل. ألا ترى أنك إذا قلتَ: إنّه لبخيلٌ وفوقَ ذلك، تُريدُ فوقَ البخل، وفوقَ ذلك، وفوقَ الشرف. وإذا قلتَ: دونَ ذلك فأنتَ رجلٌ عرفتهُ فأنزلتهُ قليلاً عن درجته، فلا تقولنَّ: وفوقَ ذلك إلاّ مدحٍ أو ذمٍّ)).^(٣)

وإذا كان ابن قتيبة قد عالج دلالة (فوق) في قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٤)، فهي عنده بمعنى: ((فما دونها؛ لأن (فوق) قد تكون (دون) عند ما هو فوقه، ودون قد تكون (فوق) عند ما هو دونها))،^(٥) فقد مهد ابن قتيبة الطريق أمام الصّغاني^(٦) (ت ٦٥٠هـ)

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ٣٥/١١ والتضاد في القرآن الكريم، ص ٢١٣-٢١٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦.

(٣) معاني القرآن، الفراء، ٢٠-٢١.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦.

(٥) تأويل مشكل القرآن، ص ٩٠ وينظر: تفسير غريب القرآن، ص ٤٤.

(٦) هو الحسن بن محمد بن الحسن بن عليّ العدويّ العمريّ أبو الفضائل الصّغانيّ (ويقال: الصّغانيّ بالألف)، حامل لواء اللغة في زمانه. ولد بمدينة لأهور سنة ٥٧٧هـ، ونشأ بغيرنضة، ودخل بغداد سنة ٥١٥هـ، وذهب منها بالرياسة الشريفة إلى صاحب الهند، فبقي مدةً، وحجّ ودخل اليمن، ثم عاد إلى بغداد، ثم إلى الهند، ثم إلى بغداد، وسمع من النّظام المرغينانيّ. وكان قد انتهى إليه المنتهى في اللغة، وكان يقول لأصحابه: احفظوا غريب الّبي عبّيد(ت ٢٢٤هـ) فمن حفظه ملك ألف دينار، فأبّي حفظه، فملكته، وأشترت على بعض أصحابي بحفظه فحفظه وملكها، وله من التصانيف: مجمع البحرين في اللغة، والتكملة على الصّحاح، والعُباب، وهو معجم سار فيه على هدي الصّحاح للجوهري(ت ٤٠٠هـ)، والأضداد، وهما من الكتب التي وصلت إلينا، وغير ذلك. ينظر: بغيّة الوعاة، ١/٥١٩-٥٢٠.

للقول بضدية ((فوق: يكون أعلى، ويكون دون))^(١)

والحقّ: أنّ (فوق) هذه لا تدلُّ إلا على معنى (فوق) لولا أنّ ابن قتيبة أراد أن يتأوّل^(٢)، فيخرجها لمناسبة ورودها في الآية الكريمة إلى معنى (دون)؛ فإذا ظلّت على معناها المعروف، فإنّ تفسير الآية يظلُّ مستقيماً، والمعنى: ما يفوق الذبابة حقارة^(٣). وهو ما ذهب إليه قطرب بقوله: ((قال : تفسيرها فما دونها، وهو قول الكلبيّ (ت ٢٠٤ هـ)، وذلك لا يجوز عندي... وأما قول ابن عباس : فما فوقها الذباب فوق البعوضة، وهو الذي يستحسن. وإنما يجوز قول الكلبيّ في الصفات أن تقول: هذا صغير فوق الصغير وفوق القليل، أي جاوز القليل في قلته فهو دونه في القلّة. فأما في الاسم، إذا قلت: هذه نملة وفوق النملة، أو حمار وفوق الحمار، يريد الأصغر من الحمار؛ فلا يجوز ذلك عندي؛ لأنّ هذا اسم ليس فيه معنى الصفة التي جاز ذلك فيها))^(٤).

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ القول ((بمعنى الدونية ناشئ من اختلاف جهة الكلام بالنسبة للقائل، لا من اللفظة نفسها، فهو كمن قلبَ الهرم إن صحَّ التشبيه، فأطلق الدونية باتجاه الذروة، والفوقية باتجاه القاعدة، فالضدية ناشئة من قلب جهة الكلام، وما كان تضادّه في غيره لا يُعدُّ ضدّاً))، وهو ما وفق الفراء في تخريجه.

أما ما جاء من أمثلة التضادّ عند الفراء، فلفظ (الظنّ) الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(٥) فالظنّ هنا بمعنى الشكّ وأما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾^(٦)، فمعناه اليقين^(٧).

(١) الأضداد، الصّغاني، ص ٢٤١.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص ١٩٠ و تفسير غريب القرآن، ص ٤٤.

(٣) ينظر: الأضداد، فهمي منصور، ص ٢٣٦.

(٤) الأضداد قطرب، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٥) سورة الجن: الآية ٥.

(٦) سورة الجن: الآية ١٢.

(٧) معاني القرآن، الفراء، ٣/١٩٢-١٩٣.

ويبدو أن الفرء اعتمد في إثبات ضدية (الظن) لكثرة دورانه في القرآن الكريم. فمن ((الشك: قوله تعالى: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيقين﴾ (١) وقوله: ﴿وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ (٢)، أي توهموا ذلك، ومن اليقين: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٣)، ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسَابِيَّةٌ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٥)). (٦)

وقد رأى أحد الدارسين في تقسيم أبي حاتم لهذه الآيات على معنى الشك واليقين المحدثين: أنه كان بمقياس العقيدة وليس بمقياس اللغة، بدليل أنه قال في مطلع كتابه: ((إِنِّي ظَنَنْتُ) يُرِيدُ إِنِّي أَيْقَنْتُ، ولو كان شاكاً لم يَكُنْ مؤمناً، وأما قوله: ﴿قُلْمٌ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ (٧)، فهو لاء شكاك كفار)). (٨) فدل بذلك على أن ((الظن ليس ضدًا لليقين، وإنما هو درجة من الدرجات الواقعة بين يقينين متضادين، هما يقين إثباتي ويقين نفي، فإذا كثرت دلائل إثبات صار الشك ظناً واقترَب من اليقين (٩) بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍ﴾ (١٠) لذا، فإن (الظن) في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهِ﴾ (١١) لا يتوجه - في رأي ابن الأنباري - إلا على اليقين، فقال: ((أراد الذين يتيقنون ذلك، فلم يذهب وهم العاقل إلى أن الله عز وجل يمدح قوماً بالشك

(١) سورة الجاثية: الآية ٣٢.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢.

(٣) سورة البقرة: الآية ٤٦.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٢٠.

(٥) سورة القيامة: الآية ٢٨.

(٦) الأضداد: أبو حاتم السجستاني، ص ٧٦-٧٧.

(٧) سورة الجاثية: الآية ٣٢.

(٨) المصدر السابق، ص ٧٢.

(٩) ينظر: التضاد في القرآن الكريم، ص ١٦٧.

(١٠) سورة سبأ: الآية ٢١.

(١١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

بلقائه))،^(١) فَعُدَّ في رأي ابن قتيبة من المقلوب، وهو ((أن يُسمَّى المتضادَّانِ باسم واحد، والأصلُ واحد))^(٢)، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَكُّوا اللَّهَ﴾^(٣)، أي يَسْتَيَقِنُونَ. وللليقين: ظَنٌّ، وللشكِّ: ظَنٌّ؛ لأنَّ في الظَّنِّ طَرَفًا من اليقين))^(٤). وعلى ذلك يُحْمَلُ الظَّنُّ في بعض أقواله تعالى))^(٥). فَإِنَّ قال قائل ((إنَّ معنى الظنِّ هاهنا، وفيما حكاه الله تعالى عن المؤمنين في قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَكِّ حِسَابِيَّةٍ﴾^(٦)، الحُسابان، فهو عظيم؛ لأنَّ الشكَّ في لقاء الحساب كَفَرٌ لا يجوز أن يَمْدَحَ اللهُ به، فإذا لم يجز ذلك ثبت أنَّه علم ويقين، فهذا مُسْتَعْمَلٌ في الكلام وخلافه، فلا يشكُّ في ذلك مُسْلِمٌ))^(٧).

فقولك: شَكَّتُ بينَ ورَقَتَيْنِ، إذا غَرَزْتَ العُودَ فيهما جميعاً، ويكون ذلك من النَّظْمِ بين الشَّيْئَيْنِ إذا شُكِّا. ^(٨) فمن المعنى الحسِّي انتقل إلى معنى مجرد، هو: خلاف اليقين؛ لأنَّ الشَّكَّ كأنَّه شُكٌّ له الأمرانِ في مَشَكٍّ واحد، وهو لا يَتَّبِعُ واحداً منهما. ^(٩) وهو الأمر الذي يبعث على الحيرة ((بين طرفي قضية معينة نفيًا وإثباتاً، وهو موقف متعب للنفس والعقل (وهو شكٌّ فكري، على عكس الشكِّ الحسِّي)، لا تنتهي متاعبه إلا بالوصول إلى راحة اليقين وطمأنينة الرُّكُونِ إلى رأيٍ أكيدٍ))^(١٠).

أما الظنُّ إذا قَوِيَ في النَّفْسِ، وكثُرَتْ دلائلهُ على الأمرِ المَظُنُّونَ صار كالعلم؛ ولأجل هذا استعملتِ العَرَبُ الظنَّ بمعنى العلم. ^(١١) على أنَّ ((كلُّ يَقِينٍ عِلْمٌ، وليس كلُّ عِلْمٍ

(١) الأضداد، ابن الأنباري، ص ٣.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٨٦.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ١٨٧ والأضداد، ابن الأنباري، ص ٨-١٣.

(٥) ينظر: سورة الحاقة: الآية ٢٠، و سورة الكهف: الآية ٥٣، و سورة البقرة: الآية ٢٣٠.

(٦) سورة الحاقة: الآية ٢٠.

(٧) المخصص ١٣/٢٦٠ وينظر: الأضداد، ابن الأنباري، ص ١٨-١٩.

(٨) معجم مقاييس اللغة، ١٧٣/٣، مادة (شك) والصحاح، ص ١٥٩٥، مادة (شك) والمخصص، ٩٠/٦، (باب الطعن ونوعته) والقاموس المحيط، ٣١٩/٢، مادة (الشك).

(٩) معجم مقاييس اللغة، ١٧٣/٣، مادة (شك)، ص ١٥٩٤، مادة (شك) والمخصص، ٣٢٠/١٢، (باب التهمة والشك).

(١٠) كلام العرب من قضايا العربية، ص ٢٨.

(١١) ينظر: الاقتصاب، ابن السيّد البطليوسي، ص ٦٦.

يَقِينٌ ، وذلك أَنَّ اليَقِينَ عِلْمٌ يَحْصُلُ بَعْدَ اسْتِدْلَالٍ وَنَظَرٍ لِعُمُوضِ المَعْلُومِ المَنْظُورِ فِيهِ ، أَوْ لِإَشْكَالِ ذَلِكَ عَلى النَّاطِرِ ، فليس كُلُّ عِلْمٍ يَقِينًا ؛ لِأَنَّ مِنَ المَعْلُومَاتِ مَا يُعَلِّمُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْترَضَ فِيهِ تَوَقُّفٌ أَوْ مَوْضِعُ نَظَرٍ))،^(١) فَدُلَّ بِذَلِكَ عَلى أَنَّ العِلْمَ : ((عِبَارَةٌ عَن حَصولِ مَعْنَى فِي النَفْسِ حَصولًا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيهِ اِحْتِمَالُ كَوْنِهِ عَلى وَجْهِ غَيْرِ الوَجهِ الَّذِي يَحْصُلُ عَليه))^(٢) . وَلِذَلِكَ قَالَتِ الأَوَائِلُ : ((إِنَّ اليَقِينَ هُوَ العِلْمُ الثَّانِي ، أَي أَنَّهُ لَا يُعَلِّمُ وَلَا يُدْرِكُ عَن بَدِيهَةٍ ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ بَدَلِ الوُسْعِ فِي التَّعَقُّبِ وَإِنْعَامِ النَّظَرِ وَالتَّصَفُّحِ . يَعْنِي مَا يُعَلِّمُ بِبَدَائِهِ العُقُولَ وَالحَوَاسِّ كَالقَضَايَا المُنْقَسِمَةَ إِلَى أربَعَةِ أقْسامٍ ، وَهِيَ : المَعْقُولُ ، كَقَوْلِنَا : العَقْلُ مُدْرِكٌ لِمَا أَعْمَلَ فِيهِ ، وَالمَحْسُوسُ ، كَقَوْلِنَا : الشَّمْسُ طَالِعَةٌ أَوْ غَرِيبَةٌ ، وَالمَشْهُورُ ، كَقَوْلِنَا : إِنَّ شُكْرَ المُنْعَمِ حَسَنٌ وَكُفْرُهُ قَبِيحٌ ، وَإِنَّ بَرَّ الأَبْوِينِ لِأَزْمٍ ، وَالمَقْبُولُ : وَهِيَ القَضِيَّةُ الَّتِي تُؤَخَذُ عَن وَاحِدٍ ثِقَةٍ مُرْتَضَى ، أَوْ جَمَاعَةٍ ثِقَاتٍ مُرْتَضِينَ ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ المَقْدِمَاتِ الَّتِي حَصَلَتْ فِي النَفْسِ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا قِيَاسٍ... وَالْيَقِينُ لَا يَتَأْتِي إِلَّا بِالإِدْرَاكِ الَّذِي هُوَ عِلْمٌ يَقُومُ عَلى التَّأَمُّلِ وَالتَّصَفُّحِ وَالمَقَابَلَةِ بَيْنَ مَعَاقِدِ الرَّاْيِ وَمَقَاصِدِهِ وَاللهُ تَعَالَى لَا يَلْحَقُهُ ذَلِكَ فَلَيْسَ كُلُّ عِلْمٍ يَقِينًا ؛ لِأَنَّ المَعْلُومَاتِ مَا يُعَلِّمُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْترَضَ فِيهِ تَوَقُّفٌ أَوْ مَوْضِعُ نَظَرٍ))^(٣) .

وَبِهَذَا يَكُونُ الفَرَاءُ وَجَلُّ المَفْسَرِينَ أَقْرَبَ نَظْرًا إِلَى الأَضْدَادِ وَفِكْرَةَ الضَّدِّيَّةِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ بِاسْتِنْبَاطِهِمْ عِلْمًا أُخْرَى لِنَشْوَاءِ الأَضْدَادِ ، سَبَقُوا إِلَيْهَا بَعْضُ المَحْدِثِينَ^(٤) ، وَهِيَ أَنَّ اللفظ قد يدلُّ على فعلٍ و نتيجة هذا الفعل . فالظنُّ - هاهنا - بمعنى اليقين على سبيل المجاز ؛ لأن المشكوك فيه قد يُعَلِّمُ . وَحَجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ تَقَوْمٌ عَلى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ مِنْ ((أَنَّ مَجْرَى حُرُوفِ التَّضَادِّ مَجْرَى الحُرُوفِ الَّتِي تَقَعُ عَلى المَعَانِي المَخْتَلِفَةِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُتَضَادَّةً فَلَا يُعْرَفُ المَعْنَى المَقْصُودُ مِنْهَا إِلَّا بِمَا يَتَقَدَّمُ الحَرْفَ (الكلمة) وَيَتَأَخَّرُ بَعْدَهُ ، مِمَّا يُوضِحُ تَأْوِيلَهُ ، كَقَوْلِكَ (حَمَلٌ) لَوْلَدِ الضَّانِّ مِنَ الشَّاءِ ، وَ(حَمَلٌ) اسْمُ رَجُلٍ ،

(١) المخصص، ٢٩/٣ .

(٢) المُبِين فِي شَرْحِ مَعَانِي أَلْفَاظِ الحُكَمَاءِ وَالمُتَكَلِّمِينَ ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٣) المخصص، ٢٩/٣ .

(٤) يَنْظُرُ فِي هَذَا الصِّدْقِ : نِصُوصٌ فِي فَهْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ، ٢ / ١٢١ .

لَا يُعْرَفُ أَحَدُ الْمَعْنِيِّينَ إِلَّا بِمَا وَصَفْنَا))^(١).

أما قول الفراء بتداخل المعنيين على جهة الاتساع، فيصدق على لفظ (الصَّريخ). جاء في معاني القرآن: ((وقوله: ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾^(٢)، الصَّريخُ: الإِغَاثَةُ))^(٣).

وهي في عُرف الأقدمين للمُغيث والمستغيث، فالمُغيثُ يصرخُ بالإِغَاثَةِ والمستغيثُ يصرخُ بالاستغاثة، وكلاهما من باب واحد.^(٤) وهو ما ذهب إليه قطرب و أبو حاتم السجستاني حين قالوا: ((ومنه - أيضاً - الصَّريخُ والصَّارِخُ للمُستغيث، والصَّريخُ والصَّارِخُ للمُغيث أيضاً، قال الله جلَّ جلاله: ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدُّونَ﴾^(٥)، أي لا مُغيثَ لَهُمْ))^(٦).

و يزعم أحد الدارسين المحدثين أن ((الصَّارِخَ للمُستغيث، والصَّريخَ للمُغيث ليس غير))^(٧)، ولا أدل على ذلك من قول سلامة بن جندل:^(٨)

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرَعٌ كَانَ الصَّارِخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَابِيْبِ^(٩)

في حين يُستشهدُ على المُغيث بالصَّريخ^(١٠) بقوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾^(١١) وهو بذلك يلتقي مع قطرب حين روى عن العرب أَنَّهُمْ: ((قالوا: صَرَخَ الصَّارِخُ

(١) الأضداد، ابن الأنباري، ص ٤.

(٢) سورة يس: الآية ٤٣.

(٣) معاني القرآن، الفراء، ٢/٣٧٩.

(٤) ينظر: الأضداد، ابن الأنباري، ص ٨-٩ والجامع لأحكام القرآن، ٩/٣٥٨ والمخصص، ١٣/٢٦٢ والأماي في لغة العرب، ١/١٦.

(٥) سورة يس: الآية ٤٣.

(٦) الأضداد، قطرب، ص ٢٧٤-٢٧٥ والأضداد، ابن السكيت، ص ٢٠٨.

(٧) التضاد في القرآن الكريم، ص ٢٢٧.

(٨) الأضداد، ابن السكيت، ص ٢٠٨ والأضداد، الأصمعي، ص ٥٤.

(٩) الظنابيْبُ: جمع الظنْبُوْبُ، وهو حَرْفُ السَّاقِ من قُدَمِ حَرْفِ عَظْمِ اليَاسِ. ينظر: القاموس المحيط، ١/١٠٣ أو معجم مقاييس اللغة، ٣/٤٧٠، مادة (ظنب).

(١٠) ينظر على سبيل المثال: الأضداد، ابن السكيت، ص ٢٠٨.

(١١) سورة يس: الآية ٤٣.

يَصْرُخُ وَيَصْرُخُ، وهي قليلةٌ في يَصْرُخُ. وقالوا: أَصْرَخْتُ الرَّجُلَ: إِذَا أَغْتَثَهُ))،^(١) فجعل لفظ (الصَّريخ) أدخلَ في السَّلْبِ منه إلى التَّضادِّ، ودلَّ بذلك على أَنَّ الفَرَاءَ لم يكنْ بحاجة إلى تعليل التَّضادِّ القائم في (الصَّريخ) من منطلق ما قال به ابن الأنباري: ((سُمِّيَا بذلك؛ لأنَّ المُغِيثَ يَصْرُخُ بالإِغَاثَةِ، والمُسْتغِيثُ يَصْرُخُ بالاستِغَاثَةِ، فأصلُها واحد))^(٢).

وقد جاء في معاني القرآن: ((وقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾^(٣)، وهم الذين لَهُم عُدْرٌ. وهو في معنى المُعْتَذِرِينَ، ولكن التَّاءُ أُدْغِمَتْ عند الذَّالِّ فصارتا جميعاً ذالاً مُشَدَّدةً، كما قيل يَذْكُرُونَ ويَذْكُرُ، وهو مثلُ ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾^(٤) لَمَنْ فَتَحَ: العَيْنُ؛ لأنَّ إعرابَ التَّاءِ صارَ في العَيْنِ، كانت، والله أعلم، المُعْتَذِرُونَ. وأما المُعَذِّرُ على جِهَةِ المُفْعَلِ، فهو الذي يَعْتَذِرُ بغير عُدْرٍ... والمُعَذِّرُ الذي بَلَغَ أَقْصَى العُدْرِ. والمُعْتَذِرُ قد يكونُ في معنى المُعَذِّرِ، وقد يكونُ لا عُدْرَ له.^(٥) قال الله تبارك وتعالى في الذي لا عُدْرَ له: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾^(٦).

ومن حروف التَّضادِّ التي جاءت في المعاني والتي أرجع الفَرَاءَ أصلها إلى التَّدَاخُلِ على جِهَةِ الاتِّسَاعِ (أَخْفَى) بمعنى (خَفَى) للظَّاهِرِ والمُسْتَتَرِّ، معتمداً في إثبات ضديَّتَيْهما على انتهى إليه متواتراً، من شيخه الكسائي^(٧) (ت ١٨٩هـ)، فقال: ((قوله: ﴿أَكَادُ

(١) الأضداد، قطرب، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) الأضداد، ابن الأنباري، ص ٨-٩.

(٣) سورة براءة: الآية ٩٠.

(٤) سورة يس: الآية ٤٩.

(٥) معاني القرآن، الفراء، ١/٤٤٨.

(٦) سورة التوبة: الآية ٩٤.

(٧) هو علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان أبو الحسن الكسائي الكوفي، مَوْلَى بني أسد، ولد في حدود سنة ١٢٠هـ. يعدُّ إماماً في اللغة والنحو، وأحد القُرَّاء السَّبْعَةِ المشهورين. وسُمِّي الكسائي لآثِهِ أَحْرَمَ في كسَاء، وقيل لغير ذلك، قرأ النحو على كَبْرِهِ، ورحل إلى البصرة، وأخذ العربية عن الخليل، وتنقل في البادية، وأنفَذَ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ، أخذ عن أبي جعفر محمد بن الحسن الرُّوَاسِي، ودخل الكوفة وهو غلام. كان مؤدب ولد الرشيد الأمين، وكان أثيراً عنده، حتى أخرجه من طبقة المؤدِّبين إلى طبقة الجلساء والمؤنسين، كان الكسائي أعلم النَّاسِ، ضابطاً، عالماً بالعربية، قارئاً صدوقاً. وكان كثير المناظرة، أشهرها: تلك التي جمعتها بسببويه والتي عرفت بالمسألة الزُّنْبُورِيَّة، سكن بغداد، ومات في الرِّيِّ، صنَّفَ معاني القرآن، ومختصراً في النحو، والقراءات، وال نوادر الكبير،

أُخْفِيهَا ﴿^(١) قرأت الفراء: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ بالضمّ. وفي قراءة أبيّ (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي فَكَيْفَ أَظْهَرُكُمْ عَلَيْهَا؟). وقرأ سعيد بن جبّير ^(٢) ﴿أُخْفِيهَا﴾، بفتح الألف، من خَفَيْتُ. وخَفَيْتُ: أَظْهَرْتُ وَخَفَيْتُ: سَتَرْتُ. ^(٣) وعلى هذا فإنّ (أُخْفِيهَا) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ^(٤): لا تحتلّ، في رأي ابن قتيبة، إلاّ معنًى ((أَسْتُرُهَا مِنْ نَفْسِي، وكذلك هي في قراءة أبيّ بن كعب ^(٥)): (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي فَكَيْفَ أَظْهَرُكُمْ عَلَيْهَا؟)). ^(٦)

والأوسط، والأصغر، ما تلحن فيه العامة، وغيرها، ينظر: معرفة القراء الكبار، ١/ ١٠٠-١٠٧ بغية الوعاة، ٢/ ١٦٢-١٦٤ وطيقات النحويين واللغويين، ص ١٢٧، ووفيات الأعيان، ٣/ ٢٥٨.

(١) سورة طه: الآية ١٥.

(٢) مولى بني والبة، يكنى: أبا عبد الله بن الحارثية، من بني سعد بن خزيمية، وعن عبد الله بن مسلم قال: كان سعيد بن جبّير إذا قام إلى الصلاة كأنه وِدْدٌ، وعن هلال بن خباب قال: خرجت مع سعيد بن جبّير في أيام مَصَّيْنٍ من رجب، فأحرم من الكوفة بعمره، ثم رجع من عمرته، ثم أحرم بالحجّ في النصف من ذي القعدة، وكان يحجّ في كل سنة مرّتين مرّة للحجّ، ومرّة للعمرة. ومن سيرته: أنه لدغته عقرب، فأقسمت عليه أمّه أن يسترقّي، فأعطى الرّاقى يده التي لم تلدغ، لأنّه كره أن يحنّتها، وكان سعيد فيمن خرج على الحجاج من الفراء، وشهد دَيْرَ الجماجم، فلمّا انهزم أصحاب الأشعث هرب، فلحق بمكة، فأخذه بعد مدّة طويّة خالد بن عبد الله القسري، وكان والي الوليد بن عبد الملك على مكة، فبعث به إلى الحجاج، فقال له: فما تقول في؟ قال أنت أعلم بنفسك، قال: بيّ بعلمك، قال: إذا نسووك ولا نسرك، قال: بيّ بعلمك. قال اعنني. قال: لا عفا الله عني إن أعفيتك، قال: إن أعلم أنك مخالف لكتاب الله، ترى من نفسك أموراً تريد بها الهيبة، وهي التي تقحمك الهلاك، وستردّ غداً فتعلم، قال: أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً قبلك، ولا أقتلها أحداً بعدك، قال: إذا تفسد عليّ دنياي، وأفسد عليك آخرتك. ولما دعيت ليقتل، جعل ابنه يبكي، فقال: ما يبكيك؟ ما بقاء أبك بعد سبع وخمسين سنة. ينظر: صفوة الصفوة، ٣/ ٥٢-٥٦ والبداية والنهاية، ٩/ ١١١٧-١١٩.

(٣) معاني القرآن، الفراء، ٢/ ١٧٦. وقد ذهب ابن كثير (٧٧٤هـ) في تفسيره أنّ (أُخْفِي) بفتح الألف وتسكين الخاء نفي الظهور والجلاء مع وفرة السند، فقال: قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا منجاب حدّثنا محمد بن سهل الأسدي، قال: أقرأنيها سعيد بن جبّير: (أَكَادُ أُخْفِيهَا) يعني: بنصب الألف وخفض الفاء، يقول: (أظهرها)). تفسير القرآن العظيم، ٢/ ١٤٤، وينظر: الأمالي في لغة العرب، ١/ ٣١٤.

(٤) سورة طه: الآية ١٥.

(٥) هو أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد، يكنى: أبا المنذر، شهد العقبة مع السبّعين، وبدراً، والمشاهد كلّها مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان يكتب له الوحي، وهو أحد الذين حفظوا القرآن كلّ على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأحدث الذين كانوا يُفتون على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يكن بالطويل ولا بالقصير، وله من الولد: الطفيل، ومحمد، وأمّ عمرو. ينظر: صفوة الصفوة، ١/ ٢١٩ وشذرات الذهب، ١/ ٣٢-٣٣.

(٦) تأويل مشكل القرآن، ص ٣٨ وتفسير غريب القرآن، ص ٢٧٧ وينظر: معاني القرآن، الفراء، ٢/ ١٧٢.

قال المبرِّد (ت ٢٨٥هـ): ((وهو على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشئ: كَتَمْتُهُ حَتَّى مِنْ نَفْسِي، أي: لم أُطَلِّعْ عَلَيْهِ أَحَدًا)).^(١)

ولئن رفض الزمخشري^(٢) (ت ٣٨٥هـ) هذه القراءة بحجة أن لا دليل على المحذوف، والمحذوف لا دليل عليه مطَّرَح، فإنَّه أقرَّ في الوقت نفسه أنَّ جَلَّ المفسِّرين جعلوا قراءة) **أَخْفِيهَا** (للسُّتْر، وكذلك هي في قراءة أَبِي بن كعب) **(أَكَادُ أَخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي فَكَيْفَ أَظْهَرُكُمْ) (أَطْلَعُكُمْ عَلَيْهَا؟)**^(٣)، فتأويل (من نفسي) (من قبلي) و(من غيبي)^(٤) كما قال: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(٥)، فدلَّ بذلك إلى أنَّ (أَخْفِيهَا) تتصل أصالة بالسُّتْر، وعليه يحمل قوله عزَّ وجلَّ: **(أَكَادُ أَخْفِيهَا)**، (وهي قراءة العامة

(١) صفوة التفاسير، ٢/ ٢٣٨.

(٢) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم. ولد بزمخش من أعمال خوارزم سنة ٤٩٧هـ، وورد بغداد غير مرَّة، وجاور بمكة زماناً، وتلقَّب بجار الله، و فخر خوارزم أيضاً. أصاب الزمخشري خراج في رجليه فقطعها، وصنع عوضها رجلاً من خشب؛ وكان إذا مشى ألقي عليها ثيابه الطوال فيظنَّ من يراه أنَّه أعرج. أخذ الزمخشري الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري وأبي مضر الأصفهاني، وسمع من أبي سعد الشفَّاني، وشيخ الإسلام أبي منصور الحارثي وجماعة كان الزمخشري واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة، متفتناً في كلِّ علم، معتزلياً قوياً في مذهبه مجاهر به. عاصر معظم ملوك دولة السلاجقة الكبرى، وهـم: جلال الدين أبو الفتح ملكشاه (٤٦٥هـ-٤٨٥هـ)، وناصر الدين محمود (٤٨٥هـ-٤٨٧هـ)، وركن الدين أبو المظفر بركياروق (٤٨٥هـ-٤٩٨هـ) وركن الدين ملكشاه (٤٩٨هـ-٤٩٨هـ)، وغياث الدين أبو شجاع محمد (٤٩٨هـ-٥١١هـ)، فعاش بذلك الزمخشري فترة عرفت فيها بلاده خوارزم نهضة علمية هائلة، تميَّزت بكثرة التآليف وانتشار العلوم المدارس وتنوع الفنون، وسعة الموسوعات وعرف اتجاهها جديداً في وضع المعاجم. وعن ذلك يقول ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): «وما أظنُّ أنَّه كان في الدنيا مدينة خوارزم نظير في كثرة الحيز وكبير المدينة وسعة الأهل والقرب من الخير وملازمة أسباب الشرائع والدين، والذين يُنسبون إليها من العلماء لا يُحصرون». مات الزمخشري يوم عرفة مخلفاً آثاراً عزيزة، منها صميم العربية، وشرح أبيات الكتاب، والقسطاس في العروض، والأحاجي النحوية والفاثق في غريب الحديث، والمستقصى في الأمثال، وتفسير الكشاف، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار، وهما من الكتب الجليلة التي وصلت إلينا، يضاف إلى المجال المعجمي ممثلاً في «أساس البلاغة». ينظر: بغية الوعاة، ٢/ ٢٧٩-٢٨٠ ووفيات الأعيان، ٤/ ٣٩٨ ومعجم البلدان، ٣/ ٢٧٦.

(٣) ينظر: الكشاف، ٢/ ٥٣٢.

(٤) ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧٧، والأضداد: ابن الأنباري، ص ٩٥-٩٦ وجامع البيان في تفسير القرآن، ١٦٠/ ١٥٠ وصفوة التفاسير، ٢/ ٢٣٨.

(٥) المائدة: الآية ١١٦.

والنَّاسِ))،^(١) وَأَنَّ الظَّهْرَ يُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَنَّ دَلَالَتَهُ قَائِمَةٌ فِي السَّتْرِ، مِنْ حَيْثُ امْتَكَنَ، ابْنُ جَنِّي^(٢) (ت ٣٩٢ هـ) أَنَّ يَرَى فِي (أَخْفَى) فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَا يُحَقِّقُ السَّلْبَ^(٣) (×) دُونَ التَّضَادِّ؛ لِأَنَّ ((تَأْوِيلَهَا وَتَلْخِيصَ حَالِهَا عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ: أَكَادُ أَظْهَرُهَا وَأَكَادُ أَزِيلُ عَنْهَا خِفَاءُهَا، وَخِفَاءُ كُلِّ شَيْءٍ: غَطَاؤُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: خِفَاءُ الْقَرِيبَةِ لِلْكَسَاءِ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهَا، وَجَمَعَهُ أَخْفِيَّةٌ))^(٤).

وَمِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَضَادَّةِ الَّتِي امْتَكَنَ الْفَرَاءُ رَدُّهَا إِلَى الْإِشْتِرَاكِ فِي صِيغَةِ اسْتِقَاقِيَّةٍ: اسْمُ الْفَاعِلِ (الْقَانِعِ) الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مَنْ يَسْأَلُ، كَمَا تَعْنِي الْمَتَعَفِّفَ عَنِ السُّؤَالِ، وَمَرَدُّ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ قَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعًا: إِذَا سَأَلَ، وَقَنَعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً وَقَنَعًا وَقُنَعَانًا: إِذَا رَضِيَ^(٥).

فَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ:

وَمَا خُنْتُ ذَا وَصَلٍ وَأَبْتُ بِوَصْلِهِ
وَلَمْ أَحْرِمِ الْمُضْطَرَّ إِذْ جَاءَ قَانِعًا

(١) الأمايلي في لغة العرب، ١/٣١٤.

(٢) هو عثمان بن جني - بسكون الياء معرب - كني أبو الفتح النحوي. ولد قبل سنة ٣٣٠ هـ. كان من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف. وكان المتنبي (ت ٣٥٤ هـ) يقول فيه: هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس. صنّف الخصائص وسر صناعة الإعراب والمحتسب والفسر أو شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، وغيرها كثير. ينظر: بغية الوعاة، ٢/١٣٢.

(٣) وتتخص في أنها ((زيادة تطرأ على الكلمة فتكسبها معنى مضاداً لما عليه معاني أصل المادة، فيحوّل معناها إلى الضد))، (البدران زهران، في قضية الرمزية الصوتية، ص ٢٢١)، أي أن كل زيادة في المبنى و تحدث زيادة في المعنى، ما عدا حروف الإلحاق. و يعلل هذا ابن جني بقوله: ((من قبل أن السلب معنى حادث على إثبات الأصل الذي هو الإيجاب، فلما كان السلب معنى زائداً حادثاً لاق به من الفعل ما كان ذا زيادة، من حيث كانت الزيادة حادثة طارئة على الأصل الذي هو الفاء والعين واللام)). (الخصائص ٣/٨٠) على أن ثمة مفارقة بين التضاد والسلب، وإن كان الثاني مفضياً إلى الأول، من قبل أن التضاد (كل شيء ضاد شيئاً ليعليه. فالبياض ضد السواد، والموت ضد الحياة، والسخاء ضد البخل، والشجاعة ضد الجبن، إذا جاء هذا ذهب ذاك)). (ينظر: العين ٦/٧، مادة (ضد) ولسان العرب، ٣/٢٦٣، مادة (ضدد). وهو ما أكده أبو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) حين ذهب إلى أن: ((كل ضد ما نافاه)). الأضداد في كلام العرب، ١/١.

(٤) سر صناعة الإعراب، ١/٣٨.

(٥) ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢٩، مادة (قنع) ومجاز القرآن، ٢/٤٤-٤٥ و الأضداد، قطرب، ص ٢٥٤ وتفسير غريب القرآن، ص ٢٩٣، والتبيان في إعراب القرآن، ٢/٢٢٦.

أي: سائلاً)).^(١)

ومن الثاني: قول لبيد من المعمرين:^(٢)

فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ أَخَذَ بِنَصِيْبِهِ وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ فِي الْمَعِيْشَةِ قَانِعٌ

وبمعنى السائل^(٣) فسّر الفراء (القانع) في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾^(٤)، وهو تفسير ارتضاه معاصراه أبو عبيدة وابن قتيبة، فرأيا أن ((مجازة السائل الذي قنع... ومعناه سأل وخضع ومصدره القنوع... أي: من الفقر والمسألة والخضوع؛ و) والمعتر: (الذي يعتريك: أي يأتيك لتعطيه)) و((لا يسأل. يقال: اعترنني وعرنني))^(٥)، واعتفيتها: إذا ألمت به))^(٦) و((يقرأ المعتري، وهو في معناه، يقال: عراهم واعتراهم؛ إذا تعرض لهم للطلب))^(٧).

وإذا كان قول لبيد:^(٨)

فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ أَخَذَ بِنَصِيْبِهِ وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ فِي الْمَعِيْشَةِ قَانِعٌ

لا يوجه إلا على الرضا، فإن شرط التضاد، مع ذلك مفقود أصلاً بينه وبين الأصل الأول، أي السؤال؛ ((إذ ليس السائل ضدًا للراضي، وإن كان بينهما ما يوحي بالتضاد؛ لأن ضد السائل المعطي، وضد الراضي السآخط، و(القانع) لا تدل على أي من هذين الضدين، فتخرج بذلك من دائرة الأضداد))^(٩).

كما أن في أصل وضع مادة (قنع) نفسها ما يعزز مذهب الفراء وأبي عبيدة، وقول

(١) الأضداد، قطرب، ص ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) ينظر: معاني القرآن، الفراء، ٢/٢٢٦.

(٤) سورة الحج: الآية ٣٦.

(٥) تفسير غريب القرآن، ص ٢٩٣.

(٦) مجاز القرآن، ٢/٤٤.

(٧) التبيان في إعراب القرآن، ٢/٢٢٦.

(٨) الأضداد، قطرب، ص ٢٥٤.

(٩) التضاد في القرآن الكريم، ص ١٩٦.

عديّ بن زيد. فقد دلّ ابن فارس على أنّها ((أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على الإقبال على الشيء بالوجه، ثمَّ تختلف معانيها مع اتّفاق القياس؛ والآخر يدلُّ على استدارة في الشيء... والإقناع: مدُّ اليد عند الدُّعاء. وسُمِّي بذلك عند إقباله على الجهة التي يمدُّ يدهُ إليها. والإقناع: إمالة الإناء للماء المنحدر... والإقناع: مدُّ البعير رأسه إلى الماء للشُّرب... وقناع المرأة معروف؛ لأنّها تُديره برأسها)).^(١)

ولهذا فإنَّ اتّساع لفظ القانع الدالُّ على السّؤال أصالةً ليشمل الرّضا جاء لتلازم الأمرين، كما يمكن أن يُحمل على تداخل اللّهجات؛ لقول ابن فارس: ((ومما شدّد عن الباب: الإقناع: ارتفاع الشيء ليس فيه تصوُّب، وقد يُمكن أن يُجعل هذا أصلاً ثالثاً، ويحتجُّ فيه بقوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾^(٢). قال أهل التّفسير: رافعي رؤوسهم))^(٣)، وهو الأمر الذي لا يلغي قول ابن عباس، رضي الله عنهما، ((يعني ناكسي رؤوسهم بلغة قريش))^(٤)، في شيء؛ وهو ارتفاع كما ترى ((ليس فيه تصوُّب))^(٥).

وعلى، هذا فإنَّ الرّضا أولاً وأخيراً يكون قناعةً إذا كان إقبالاً وتوجّهاً مطلقاً لله عزّ وجلّ بمدِّ اليد بالدُّعاء ممّن كان قلبه عامراً بالإيمان. أمّا الظالم: فلا يملك ين يدي الله تعالى إلاّ أن يُنكس رأسه؛ بعد أن فقد سبب ارتفاعه، وهي بذلك في آيتي القرآن الكريم غيرُ ضدّ.

ويبدو أنّ الفراء لم يجد عناءً كبيراً في نفي ضدّيّة (الغابرين) من قولها تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾^(٦)، فقال مُقيّداً دلالتها: ((الغَابِرُونَ: الْبَاقُونَ)).^(٧) ولأنّه يُقال: ((مَنْ

(١) معجم مقاييس اللغة، ٥/٣٢-٣٣، مادة (قنع).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة، ٥/٣٢-٣٣، مادة (قنع).

(٤) اللغات في القرآن، ص ٣١.

(٥) معجم مقاييس اللغة، ٥/٣٢-٣٣، مادة (قنع).

(٦) سورة الشعراء: الآية ١٧١.

(٧) معاني القرآن، الفراء، ٢/٢٨٢.

مَضَى وَمَنْ غَبَرَ، أَي: وَمَنْ بَقِيَ))،^(١) فَإِنَّ أَبَاعبيدة لم يرَ فيها: ((إِلَّا عَجُوزًا وَقَدْ هَلَكْتَ فِي الهالكين الذين هلكوا من قومها، وَمَجَازُهَا: إِلَّا عَجُوزًا هَرِمَةً فِي الغابرين الذين بقوا حَتَّى هَرُمُوا، وَقَدْ أَهَلَكْتَ مَعَ الَّذِينَ أُهْلِكُوا))^(٢).

على أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّظَرِ يَذْهَبُونَ بِ(الغَابِرِينَ) إِلَى مَعْنَى (البَاقِينَ). قَالَ أَبُو حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِي: ((وَمَنْ الْأَضْدَادُ: الغَابِرُ البَاقِي، وَالغَابِرُ المَاضِي، وَالأَكْثَرُ عَلَى البَاقِي))^(٣). وَمِثْلُهُ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ،^(٤) مِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فَأَجْنَيْنَهُ وَأَهْلَهُ، إِلَّا أَمْرَاتَهُ، كَانَتْ مِنْ الْعَرَبِينَ ﴾^(٥) قَالَ أَبُو عبيدة ((أَي كَانَتْ قَدْ غَبَرَتْ مِنْ كِبَرِهَا فِي الغَابِرِينَ، فِي البَاقِينَ حَتَّى هَرِمُوا وَهَرِمَتْ وَهِيَ قَدْ أَهَلَكْتَ مَعَ قَوْمِهَا فَلَمْ تَغْبِرْ بَعْدَهُمْ فَتَبَقَى، وَلَكِنهَا قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الغَابِرِينَ، وَجَعَلَهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَقَالَ: مِنَ الغَابِرِينَ؛ لِأَنَّ صِفَةَ النِّسَاءِ مَعَ صِفَةِ الرِّجَالِ تُذَكَّرُ إِذَا أُشْرِكَ بَيْنَهُمَا))^(٦).

كَمَا أَنَّ لَهُ مِنَ الشَّوَاهِدِ الشَّعْرِيَّةِ مَا يَفِي بِالغَرَضِ. ((وَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُ الحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ:

لَا تَكْسَعُ^(٧) الشَّوْلَ^(٨) بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاتِحِ^(٩)

(١) تفسیر غریب القرآن، ص ١٧٠.

(٢) مجاز القرآن، ٨٦/٢.

(٣) الأضداد، أبو حاتم السجستاني، ص ١٥٣، وينظر: تفسیر غریب القرآن، ص ١٧٠ و مجاز القرآن، ٢/٢ والأضداد، ابن الأنباري، ص ١٢٩ والأضداد في كلام العرب، ٢/٥٢٧.

(٤) ينظر: سورة الحجر: الآية ٦٠ والنمل: الآية ٥٧، والعنكبوت: الآيتان ٣٢-٣٣، والصفات: الآية ١٣٥.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٨٣.

(٦) مجاز القرآن، ص ٢١٨-٢١٩.

(٧) يقال: كَسَعَتْ النَّاقَةُ بَغْبَرَهَا، إِذَا تَرَكَتْ بَقِيَّةً مِنَ اللَّبَنِ فِي خَلْفِهَا، تُرِيدُ تَغْزِيرَهَا. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ يُحْلَبُ بَعْدَ أَنْ يُحْلَبَ لِبَنُهَا وَيَضْرَبُ عَلَى مَوْخَرِهَا لَتَمْضِي. ينظر: معجم مقاييس اللغة، ١٧٧/٥، مادة (كسع). يقول: احْلَبْ شَوْلَكَ لِلأَضْيَافِ، وَلَا تَكْسَعْهَا، فَقَدْ يَغْيِرُ عَلَيْهَا عَدُوٌّ فَيَكُونُ نَتَاجُهَا لَكَ دُونَهُ.

(٨) الشَّوْلُ جَمْعُ شَائِلَةٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ أَتَى عَلَيْهَا مِنْ حَمَلِهَا أَوْ وَضَعَهَا سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، فَارْتَفَعَ لِبَنُهَا وَجَفَّ. وَالشَّوْلُ كَذَلِكَ الَّتِي تَشْوُلُ بِأَذْنَابِهَا عِنْدَ اللِّقَاحِ. ينظر: المصدر السابق، ٣/٢٣٠، مادة (شول).

(٩) النَّاتِحُ: الَّذِي يَتَوَلَّى وَوَلَادَةَ الحَيْوَانِ. ينظر: أساس البلاغة، ص ٦١٦، مادة (نتج).

الأغْبَارُ هَاهُنَا بَقَايَا اللَّبَنِ فِي ضُرُوعِ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا، وَاحِدُهَا غُبْرٌ)).^(١) و((قَالَ الْعَجَّاجُ: ^(٢)

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مُذْ أَنْ غَفَرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ

أَيُّ: بَقِيَ، وَكَذَلِكَ غَبَرَ اللَّبَنُ وَالْحَيْضُ وَغَبَرَ اللَّيْلُ)).^(٣)

والذي نراه في قول الصَّغَانِي: ((الغَابِر: المَاضِي والبَاقِي))^(٤) لا يَعدُو أَنْ يَكونَ، في رأينا، من باب الإِقْرَارِ بَأَنَّ (الغَابِرِينَ) هم: البَاقُونَ، على اعتبَارِ ما كانوا، ماضِينَ إلى هلاك لا مَحَالَةَ، على اعتبَارِ ما سَيَؤُولُونَ إليه.

هذا، وقد ينتصر الفراءُ لمعنى حرف الضدِّ دونما عرض للروايات التي وردت فيه نحو قوله في تأويله (سامدون) في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَكِمِدُونَ﴾^(٥) بـ(لَاهُونَ)،^(٦) وهو مذهب أبي عبيدة^(٧) وابن قتيبة بوجه من الوجوه كونه أضاف خبراً تفصيلاً مفاده إلى أَنْ ذَلِكَ ((ببعض اللغات))^(٨) لعلمه أَنَّ السَّامِدَ في كتب اللغة تطلق على اللاهي وعلى الحزين، فالمعنى الأوَّلُ بلغة أهل اليمن والثاني بلغة طيِّء. وقال ابن عباس، رضي الله عنهما على اللغة اليمانية. وقال الكلبي: سَامِدُونَ مهتمُّون على لغة طيِّء. ^(٩) كما تطلقُ على ((اللاعب، وهذا ضدُّ الحزين... والمطرق... والطائح الطرف... والمغمي عليه))،^(١٠) والمغني، لأنَّه ((يُقَالُ لِلجَّارِيَةِ: اسْمُدِي لَنَا؛ أَيُّ غَنِي لَنَا))،^(١١) إضافةً إلى دلالاتها على

(١) معاني القرآن، الفراء، ٢/٢٨٢.

(٢) ديوان العجاج، ١/١٠.

(٣) مجاز القرآن، ٢/٨٦.

(٤) الأضداد، الصَّغَانِي، ص ٢٤٠.

(٥) سورة النَّجْم: الآية ٦١.

(٦) معاني القرآن، الفراء، ٣/١٠٣.

(٧) ينظر: مجاز القرآن، ٢/٢٣٩.

(٨) تفسير غريب القرآن، ص ٤٣٠.

(٩) ينظر: الأضداد، قطرب، ص ٢٤٥ والأضداد، ابن الأنباري، ص ٤٣.

(١٠) الأضداد، قطرب، ص ٢٤٥.

(١١) تفسير غريب القرآن، ص ٤٣٠.

الهائم، والسَّاكت. (١)

وسياق الآية يهدي إلى معنى اللُّهُو والغناء؛ لأنَّه يُناسِبُ الضَّحِكُ المُشارِ إليه في الآية (٢).
فالكلمة تحتل أكثر من معنيين لا اختلاف اللهجات، وإن جاءت في القرآن الكريم بمعنى واحد، هو: اللُّهُو بلسان أهل اليمن، فكانت بذلك أقرب إلى المشترك منها إلى التضاد.

وإذ يُقَيِّدُ الفِرَاءَ (الرَّجَاء) في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (٣)
بالجحد في معنى الخَوْف؛ فلكني يخرج به من الأضداد إلى ما يجري مجراها، فقال: ((
قال بعض المفسرين: معنى تَرْجُونَ: تَخَافُونَ. ولم نجد معنى الخَوْف يكون رجاءً
إلاً ومعه جحد. فإذا كان كذلك كان الخَوْف على جهة الرجاء والخوف، وكان الرجاء
كذلك؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ (٤): هذه:
للذين لا يخافون أيام الله، وكذلك قوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (٥): لا تخافون لله
عظمة. وهي لغة حجازية... ولا يجوز رجوت وأنت تريد: خفت، ولا خفت وأنت تريد
رجوت)). (٦)

والحقُّ: أنَّ لفظ (الرَّجَاء) في القرآن الكريم ينصرف إلى الطَّمَع والخَوْف؛ لذا
احتملت المعنيين عند معظم كتب التفسير. (٧) ففي معنى الخوف ما سلف من شواهد
قرآنية تضمَّنْها قول الفراء السابق، ينضاف إليها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٨).

أما في معنى الطَّمَع، فمنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا

(١) ينظر: غريب القرآن، ص ١١١ والأضداد، ابن الأنباري، ص ٣٤.

(٢) ينظر: التضاد في القرآن الكريم، ص ١٥٦.

(٣) سورة النساء: الآية ١٠٤.

(٤) سورة الجاثية: الآية ١٤.

(٥) سورة نوح: الآية ١٣.

(٦) معاني القرآن، الفراء، ٢٨٦/١.

(٧) ينظر: الأضداد، أبو حاتم، ص ٨٠-٨١ والأضداد، الصَّغَانِي، ٢٣٠، والأضداد، ابن الأنباري، ص ١٨،

والأضداد في كلام العرب، ٣٠٠/١.

(٨) سورة يونس: الآية ٠٧.

وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١﴾

وعلى الرغم من إقرارنا بوجود ألفاظ في اللغة تمتاز بخاصية مزدوجة تستعمل على وجهين متضادين، كلفظ (الرجاء) فإننا نعتقد بوجود فارق بين الأضداد والمشارك. فالمشارك يقع على شيئين ضديين وعلى مختلفين. ومن هنا وجد أن تحديد الأضداد شيء دقيق لا يكاد يفصله عن المشارك إلا ما يبدو من كثرة استعمال الأضداد على وجهين؛ في حين قد يستعمل المشارك على وجهين وأكثر. من ذلك (الطمع) في قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢) ينصرف معناه إلى الرجاء في المطموع فيه، وهو: مغفرة الله تعالى. فإبراهيم، عليه السلام، وإن كان لا يشك في مغفرة الله على إطلاقها، والتي وسعت جميع عبادته، غير أنه يرجو الله كغيره من البشر الذين لا يقرُّ مصيرهم في الآخرة إلا القديم جل ثناؤه. فإبراهيم، عليه السلام - في تواضع الأنبياء - يرجو كغيره من المؤمنين ما هو معلوم عند الله أولاً، وما ثبت لديه بالتجربة ثانياً؛ فطمعه هذا لا يخلو من أن يكون على معنى اليقين أو الطمع الذي يجوز معه كون المطموع وخلافه؛ لأنه ليس في الآخرة شك في شيء من أمور الجنة والنار، والعلم بذلك كله اضطراراً. (٣) ثم أليس هو المجهول، وقد امتحنه الله تعالى في إيمانه: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمُ﴾ (٤). لذا جاز أن تقول: رجوت وأنت تريد: خفت، وخفت وأنت تريد رجوت، فإذا كان ما أثبتناه صحيحاً، والله أعلم، فإن لفظ الرجاء أقرب إلى المشارك منه إلى الأضداد.

وقد عدَّ الفراء (الصَّريم) في القرآن الكريم من المقلوب في كلام العرب والمزال عن جهته، وليس من الأضداد، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (٥):

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٢.

(٣) ينظر: المخصص، ١٢/٢٦٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

(٥) سورة القلم: الآية ٢٠.

((كاللَّيْلِ الْمَسُودِّ)).^(١)

والحَقُّ أَنَّ أَقْوَالَ الْمَفْسِّرِينَ فِي أَمْرِ (الصَّرِيمِ) شَتَّى. ((قال بعضُ المفسِّرين معناه: كالنَّهَارِ الْمُضِيِّ، بِيضَاءٍ لَاشِيءٍ فِيهَا. وَقَالَ آخَرُونَ: كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ سَوْدَاءً، لَاشِيءٍ فِيهَا. وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مَوْجُودٌ فِي اللُّغَةِ. أَمَّا مَنْ قَالَ: كَالنَّهَارِ الْمُضِيِّ: فَحُجَّتُهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:^(٢)

بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ قَعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهُ

يعني الصَّبَاحُ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: كَاللَّيْلِ، فَحُجَّتُهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ:

* تَهْوِي هُوِيَّ أَنْجَمِ الصَّرِيمِ *

وقال آخر:

كَأَنَا وَالرِّحَالُ عَلَى صُورِ بَرِمَلٍ خَزَاقٍ أَسْلَمَهُ الصَّرِيمُ

وقال بعضهم معناه: انْحَسَرَ عَنْهُ الرَّمْلُ. وَقَالَ قَوْمٌ مَعْنَاهُ: خَرَجَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَنْجَلَى عَنْهُ؛ كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ:^(٣)

حَتَّى غَدَا فِي بَيَاضِ الصُّبْحِ مُنْصَلِتًا يَقْرُو^(٤) الْأَمَاعِزَ^(٥) مِنْ لُبْنَانَ^(٦) وَالْأَكْمَا

وَأِنَّمَا سُمِّيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَرِيمًا لِأَنَّهُ يَنْصَرِمُ إِذَا وَافَى الْآخَرَ. وَالْمَعْنَى - أَيْضًا - لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: لَكَ بَيَاضُ الْأَرْضِ وَسَوَادُهَا. يَعْنُونَ بِالْبَيَاضِ مَا لَا عِمَارَةَ فِيهِ، وَبِالسَّوَادِ مَا فِيهِ الْعِمَارَةُ. فَهَذَا مَا يُحْتَجُّ بِهِ لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْبَيَاضِ. وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى السَّوَادِ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهَا احْتَرَقَتْ بِرِيحِ صَرٍّ، أَوْ نَارٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

(١) معاني القرآن، الفراء، ٣/١٧٥.

(٢) ديوان زهير، ص ٦٨.

(٣) ديوان النَّابِغَةُ، ص ٢٢٢ وفيه بغير لفظ:

حَتَّى غَدَا مِثْلَ نَضْلِ السَّيْفِ مُنْصَلِتًا

و (نَبِيَّانُ): موضع. ينظر: القاموس المحيط، ٣/٤٠٠، مادة (نوى).

(٤) يَقْرُو: يقصد ويتبع. ينظر: القاموس المحيط، ٤/٢٨٠، مادة (القرو).

(٥) الْأَمَاعِزُ: جمع الْأَمْعَزِ: وهو المكان الصَّلْبُ الكَثِيرُ الحَصَى. ينظر: القاموس المحيط، ٢/١٩٩، مادة (المعز).

(٦) لُبْنَانُ: جبلٌ في بلاد قيس ببادية الشَّامِ كثير الوحوش. ينظر: المصدر السابق، ٤/٢٧٦، مادة (النون).

﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾^(١) ((٢)).

وهو تضادٌّ، في عُرف ابن الأنباري، ناشئٌ من تداخل الاثنَيْن على جهة الاتساع. فقد ((قال آخرون: إذا وقع الحرفُ (الكلمة) على معنيَيْن متضادَّيْن فالأصلُ لمعنى واحد، ثمّ تداخل الاثنان على جهة الاتساع. فمن ذلك: الصَّرِيمُ، يُقالُ للَّيْلِ صَرِيمٌ، وللنَّهَارِ صَرِيمٌ؛ لأنَّ اللَّيْلَ ينصرم من النَّهارِ، والنَّهارَ ينصرم من اللَّيْلِ، فأصلُ المعنيين من باب واحد، وهو: (القطعُ)).^(٣) وهو ما حاولَ ابنُ قتيبة تخريجه من باب ((أن يُسمَّى المتضادَّانِ باسم واحد، والأصلُ واحد))^(٤)، ومنه قولهم: ((للصُّبْحِ صَرِيمٌ، وللَّيْلِ صَرِيمٌ، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾^(٥)، أي كاللَّيْلِ؛ لأنَّ اللَّيْلَ يَنْصَرِمُ عَنِ النَّهَارِ، والنَّهَارُ يَنْصَرِمُ عَنِ اللَّيْلِ)).^(٦) ولعموم هذا المعنى أنكر القالي^(٧) (ت ٣٥٦ هـ) أن يكون اللفظ من الأضداد من حيث ((تمسك بأصل المعنى، وهو القطع، ولا يرى

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٦.

(٢) ينظر: الإنصاف، ص ٤٢-٤٥.

(٣) الأضداد، ابن الأنباري، ص ٨.

(٤) تأويل مشكل القرآن، ص ١٨٦.

(٥) سورة القلم: الآية ٢٠.

(٦) تأويل مشكل القرآن، ص ١٨٦-١٨٧ وينظر: الأضداد لابن الأنباري، ص ٨.

(٧) هو إسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيْذون بن عيسى بن محمد بن سليمان (مولى الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي)، أبو علي البغدادي، المعروف بالقالي، نسبة إلى «قالي قلا» بفتح القاف وبعد الألف لام مكسورة ثم ياي مثناه من تحتها ثم قاف بعدها لام ألف، بلد من أعمال ديار بكر أو أرمينية. قال أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) «وسألت أبا علي: لم قيل له القالي؟ فقال: لما انحدرنا إلى بغداد كنا في رُفْقٍ فيها أهل قالي قلا، فكانوا يحافظون لمكانهم من الثغر، فلما دخلت بغداد، انتسبت إلى قالي قلا، وهي قرية من منازل جرد، ورجوت أن أنتفع بذلك عند العلماء، فمضى علي القالي». وقدم أبو علي بغداد سنة ٣٠٢ هـ، فأقام في الموصل، فكتب عن أبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) وغيره. ثم دخل بغداد سنة ٣٠٥ هـ فأقام بها إلى سنة ٣٢٨ هـ، وقرأ النحو والعربية والأدب وكتب الغريب والشعر وسمع الحديث عن مشاهير عصره. كان أحفظ أهل زمانه للغة، وأرواهم للشعر الجاهلي، وأحفظهم له، وأعلمهم بطل النحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً له. خرج من بغداد سنة ٣٢٨ هـ، فدخل الأندلس فقرطبة سنة ٣٣٠ هـ، فأكرمه صاحبها إكراماً جزيلاً، وأملى كتابه «الأمالي» بها، وأكثر كتبه وضعها بها، وقرأ عليه الناس كتب اللغة والأخبار والأمالي. وعظمت استفادتهم منه، ومدحه يوسف بن هارون الرمادي بقصيدة بديعة. روى عنه أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) في طبقاته. توفي سنة ٣٥٦ هـ بقرطبة. ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ٣٦-١٨٨؛ و: بغية الوعاة، ١/٤٥٣؛ وابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٢٢٦-٢٢٨.

من الأضداد ما تفرّع عنه أو تداخل فيه))،^(١) لقوله في أماليه: ((الصَّرِيمُ: الصُّبْحُ ، سَمِّيَ بذلك؛ لأنّه انصَرَمَ عن الليل، والصَّرِيمُ: اللَّيْلُ؛ لأنّه انصَرَمَ عن النَّهَارِ ، وليس هو عندنا ضِدًّا))،^(٢) ولهذا السَّبَبِ لم يَعُدَّ الفَرَاءُ ومعظم المفسِّرين (الصَّرِيمُ) من الأضداد القرآنية.

وكأَيِّ باحثٍ مجتهدٍ فإنَّ الفَرَاءَ لم يسلم من أخطاء التفسير، حين قال بضدِّيَّة (البشارة) في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣) معقباً: ((والبشارة إنما تكون في الخير، وقد قيل ذاك في الشر)).^(٤) وهو وهمٌ تردى فيه أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) كذلك. فقد نقل عنه ابن سيده قوله في أن ((التبشير يكون بالخير والشر كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٥)... والاسم البشْرُ والبشارة والبشارة سميَّت بذلك؛ لأنَّ الذي يبشِّرُ بما يسره تحسُّنٌ بشرةً وجهه)).^(٦) وهو ما دعا ابن سيده إلى التنبيه على خطئه والتقليل من كثرة دورانه في لغة العرب، وذلك لأنَّ ((التبشير في العربية وفي سائر اللغات السَّامية مختصٌّ بالخبر الذي يفيد السرور غالباً))^(٧) ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٨) فقال في (باب فَعَلْتُ وَأَفْعَلْتُ): ((ويقال: بَشَرْتُ الرَّجُلَ بخَيْرٍ أَبشِرُهُ وَأَبشِرُهُ بَشْرًا وَأَبشِرْتُهُ والتشديد جائزٌ فيها ،

(١) ينظر: رواية اللغة، ص ٣٣٩.

(٢) الأمالي في لغة العرب، ٢/ ٣٢٢ وينظر: المزهري، ١/ ٣٩٧.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢١.

(٤) معاني القرآن، الفراء، ١/ ٢٣٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ٢١.

(٦) المخصص، ٣/ ١٣٤ (باب الفرح والإعجاب بالشيء). وقد نسب ربحي كمال القول إلى ابن سيده على سبيل التوهّم ، وتابعه في ذلك محمد خليفة الدنّاع. ينظر: التضادّ في ضوء اللغات السامية، ص ١٤ او قراءة

النصوص التراثية، ص ١٠٢.

(٧) التضاد في ضوء اللغات السَّامية، ص ١٤.

(٨) سورة فصلت: الآية ٣٠.

وقد يكون التَّبَشِيرُ بالشرِّ... ولم يُقَلَّ في الشَّرِّ أبشَرَ ، وقرأ أبو عمرو^(١) (٥٤ هـ): قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾^(٢) : (ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُهُ عِبَادَهُ) ، وكذلك خَفَّفَ ابنُ كثيرٍ في الشُّورى خاصة. أما حمزة^(٣) (ت ٥٦ هـ)، فقرأ بالتخفيف في كل القرآن،

(١) هو أبو عمرو بن العلاء المازني المقرئ النحوي البصري الإمام مقرئ أهل البصرة، اسمه زَبَان - على الأصح - بن عَمَّار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التَّمِيمِي المازني. وقيل: اسمه: العريان، وقيل: يحيى، وقيل: محبوب، وقيل: جُنَيْد، وقيل: عبيدة، وقيل: عثمان، وقيل: عباد، وقال الأصمعي: (ت ٢١٣ هـ) وعمر بن شَبَه (ت ٢٦٢ هـ): اسمه كنيته. قال أبو عمرو الدَّانِي (ت ٤٤٤ هـ): يقال: إنه ولد بمكة سنة ٦٨ هـ، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة، وإليه انتهت الإمامة في القراءة بالبصرة. قال الأصمعي: سمعت أبا عمرو يقول: كنت رأساً والحسن البصري (ت ١١٠ هـ) حيي، وقال أحمد بن محمد البيهقي (ت ٢٦٠ هـ): كان أبو عمرو قد عرف القراءات، فقرأ من كل قراءة أحسنها، وبما يختار العرب، وممَّا بلغه من لغة النبي ﷺ، وجاء تصديقه في كتاب الله عزَّ وجلَّ. وقال أبو العيَّان (ت ٢٨٢ هـ) عن أبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ): كان أبو عمرو أعلم النَّاس بالقراءات والعربية وأيام العرب، والشعر وأيام النَّاس. وكان لأبي عمرو بيت مملوء بالكتب حتى السَّقْف ، ففتنَّسك فأحرقها.. ينظر: معرفة القراء الكبار، ٨٢-٨٧ وطبقات النحويين واللغويين، ص ٣٥ / ٤٠.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٣) هو حمزة بن عمار الزيات، ويكنى أبا عمار، مولى آل عكرمة بن ربيعي التميمي، وكان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان، ويجلب الجبن والجوز إلى الكوفة، وكان صاحب قرآن وسنة وفرائض. قال خلف ابن هشام البراز: قال لي سليم بن عيسى: دخلت على حمزة بن حبيب الزيات، فوجدته يمرغ خديه في الأرض ويكي. قلت: أعيدك بالله، فقال: لما استعدت؟ رأيت البارحة في منامي كأن القيامة قد قامت، وقد دُعِيَ بقراءة القرآن، فكننت فيمن حضر، فسمعت قائلاً يقول بكلام عبد: لا يدخل علي إلا من عمل بالقرآن، فرجعت القهقري فهتفت باسمي: أين حمزة بن حبيب الزيات؟ فقلت: لبيك داعي الله، فبدرني ملك، فقال: لبيك اللهم، فقلت: لبيك، كما قال لي، فأدخلني داراً فسمعت فيها ضجيج القرآن، فوقفت أرعد، فسمعت قائلاً يقول: لا بأس عليك أرقت وقرأ، فأدرت وجهي، فإذا أنا بمنبر من در أبيض، دفناه من ياقوت أصفر، مراقبه من زبرجد أخضر، فقال لي: أرقت وقرأ، فقال لي: اقرأ سورة الأنعام، فقرأت وأنا أدري على من أقرأ، حتى بلغت الستين آية، فلما بلغت ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿ (سورة الأنعام: الآية ١٨) قال لي: يا حمزة ألسنت القاهر فوق عبادي؟ فقلت: بلى. قال: صدقت، اقرأ، فقرأت حتى ختمتها، ثم قال لي: اقرأ، فقرأت الأعراف حتى بلغت آخرها، فأومأت إلى الأرض بالسجود، فقال لي: حسبك ما مضى. من أقرأك هذه القراءة؟ قلت: سليمان عن يحيى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن عم نبيك علي، رضي الله عنه، عن نبيك محمد - ﷺ - عن جبريل عليه السلام. فقال: ومن أقرأ جبريل؟ قال: فسكت. فقال لي: يا حمزة قل: أنت. قال: فقلت: ما أجسر أن أقول، فقال: فقلت: أنت. قال: صدقت يا حمزة، وحق القرآن لأكرم أهل القرآن، لا سيما إذا عملوا به، يا حمزة، القرآن كلامي وما أحب أحداً حببي أهل القرآن، ادن يا حمزة، فدنوت، فضمخني بالغالية وقال: ليس أفعل بك وحدك، قد فعلت ذلك بنظرائك ممن فوقك ومن دونك، ومن أقرأ القرآن كما أقرأته لم يرد بذلك غيري، وما خبأت لك يا حمزة عندي أكثر، فأعلم أصحابك بمكاني من حبي لأهل القرآن، وفعلني بهم، فهم المصطفون الأخيار، يا حمزة، وعزتي وجلالي لا أذب لساننا تلا القرآن بالنار، ولا قلباً وعاه، ولا أذننا سمعته، ولا عيناً نظرته. فقلت: سبحانك

إلا في موضع ﴿فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾^(١) ووافقه الكسائي على التخفيف في خمسة مواضع: في آل عمران موضعان ، وفي الإسراء ، وفي الكهف موضع وفي الشورى موضع، وهي على ترتيبها^(٢) قد شدد ذلك الباقون. والتخفيف والتشديد لغتان مشهورتان، يُقال: بَشَّرَ يُبَشِّرُ، وَبَشَّرَ يُبَشِّرُ مَبَشَّرًا وَبُشُورًا ، وأنكر أبو حاتم التخفيف، وقال: لا نعرف فيه أصلاً يعتمدُ عليه، وهي لغة مشهورة. وأكثر ما وقع في القرآن، مما أجمع عليه التشديد، نحو: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾^(٣) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ^(٤) ﴿١٧﴾ و﴿وَأَبَشِّرُوا بِبَشِيرِهِ مِمَّا مَغْفِرٌ﴾^(٥) وفيه لغة ثالثة وهي (أبشر)^(٦) قال الله جلَّ ذكره: ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ﴾^(٧).

وأنشد الرياشي:

وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْحَانُوتِ أَبَشِّرُهُ بِالرَّحْلِ تُحْنِي عَلَى الْعَيْرَانَةِ الْأُجْدِ^(٨)

أراد صاحب الحانوت الخمار ، وإنما قيل البشارة ، لأنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَمِعَ مَا يُحِبُّ أَشْرَقَتْ بَشْرَتُهُ وَجْهَهُ^(٩))). وقد دلل بذلك على أنَّ التبشير في التنزيل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١٠)، إنما هو لدواعي الاستهزاء والتهكم والوعيد^(١١) ، وهو ما لم

وأنتى ترى؟ فقال: يا حمزة، أين نطار المصاحف؟ فقلت: يا رب، أفحفظهم؟ قال: لا، ولكني أحفظه حتى يوم القيامة، فإذا لقوني رفعت لهم بكل آية درجة. فقال لصاحبه سليم: أفتلومني أن أبكي وأتمرغ في التراب؟ ينظر: صفوة الصفوة، ٣/ ١٠-١١٠.

(١) سورة الحجر: الآية ٥٤.

(٢) الآيات: ٤٥، ٣٩، ٢٣، ٩.

(٣) سورة الزمر: الآيتان: ١٧-١٨.

(٤) سورة يس: الآية ١١.

(٥) ينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، ١/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٦) سورة فصلت: الآية ٣٠.

(٧) الأجد: القويّة المكتنزة ، متصلةً فقار الظهر ، خاصٌّ بالإناث. ينظر: القاموس المحيط، ١/ ٢٨٣ ، مادة (الإجاد).

(٨) المخصص، ١٤/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٩) سورة آل عمران: الآية ٢١.

(١٠) البحر المحيط، ٢/ ٤١٤.

يَسْتَبْعِدُهُ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ (ت ٣٧٧هـ)، وَإِنْ قَلَّ مِنْ أَهْمِيَّتِهِ، حِينَ قَالَ: ((وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ فِي الشَّرِّ)): (١) وَلَعَلَّ الْفَرَاءَ كَانَ بِذَلِكَ أَدْرَى.

وَفِي الْمَوْضِعِ نَفْسِهِ مِنْ كِتَابِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَجَدَ الْفَرَاءَ فِي لَفْظِ (الْإِثَابَةُ) تَضَادًّا، فَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿عَمَّا يَغْمِرُ﴾ (٢): ((الْإِثَابَةُ - هَاهُنَا - فِي مَعْنَى الْعِقَابِ... وَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ اجْتَرَمَ إِلَيْكَ: لَنْ أَتَيْتَنِي لِأُثْبِتَكَ ثَوَابَكَ، مَعْنَاهُ: لِأَعْقِبَنَّكَ، وَرُبَّمَا أَنْكَرَهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ... وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣)، وَالْبَشَارَةُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الْخَيْرِ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ فِي الشَّرِّ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (عَمَّا يَغْمِرُ) مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أَحَدٍ مِنَ الْهَزِيمَةِ وَالْقَتْلِ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بَخِيلَهُ فَخَافُوهُ، وَغَمَّهُمْ ذَلِكَ)). (٤)

وَقَالَ الْأَخْفَشُ (ت ٢١٥هـ) فِي تَفْسِيرِهَا: ((أَيُّ: عَلَى غَمٍّ، كَمَا قَالَ: ﴿فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ (٥)، وَمَعْنَاهُ عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ... وَتَقُولُ: نَزَلْتُ فِي أَبِيكَ، أَيُّ: عَلَى أَبِيكَ)) (٦)، فَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ حُرُوفَ الْجَرِّ يَنْوِبُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، مِنْ حَيْثُ أَصْبَحَ الثَّوَابُ عَلَى تَحْمَلِ الْغَمِّ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

وَقَدْ زَادَ ابْنُ قَتَيْبَةَ طَبِيعَةَ هَذَا الْغَمِّ إِضَاحًا، فَقَالَ: ((أَيُّ جَازَاكُمْ غَمًّا مَعَ غَمٍّ، أَوْ غَمًّا مُتَّصِلًا بِغَمٍّ. وَالْغَمُّ الْأَوَّلُ: الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ. وَالْغَمُّ الثَّانِي: أَنَّهُمْ سَمِعُوا بِأَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ قَتَلَ، فَأَنْسَاهُمْ الْغَمَّ الْأَوَّلَ)). (٧)

وَإِذَا كُنَّا قَدْ دَلَّلْنَا قَبْلَ عَلَى أَنَّ (الْبَشَارَةَ) لَيْسَتْ مِنَ الْأَضْدَادِ؛ لِأَنَّهَا تُقَالُ فِي الْخَيْرِ مُطْلَقًا، فَإِنَّ (الْإِثَابَةَ) بِذَلِكَ أَوْلَى، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ الَّذِي عَمِدَ إِلَى

(١) المخصص، ١٣٤/١٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٢١.

(٤) معاني القرآن، الفراء، ١/٢٣٩-٢٤٠.

(٥) سورة طه: الآية ٧١.

(٦) معاني القرآن، الأخفش، ١/٢١٨.

(٧) تفسير غريب القرآن، ص ١١٤.

حمل قول الفراء، ومن حدا حدوه، على الزعم المفضي إلى نفي ضديّة (الإثابة)، بقوله: ((قالوا: أُنَبِّأَ الرَّجُلَ إِذَا أُعْطِيَ ثَوَابَهُ، وَأُتْبِتَهُ زَعَمُوا فِي مَعْنَى اسْتَنْبَتَهُ، وَلَا أَعْرَفُهُ)).^(١) ومن ذلك: قول الفراء في تفسير (البطانة) من قوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾.^(٢)

((وقد تكونُ البطانةُ ظهارةً، والظهارةُ بَطَانَةٌ في كلام العرب، وذلك أن كلَّ واحدٍ منهما قد يكونُ وجهاً، وقد تقولُ العربُ: هذا ظهْرُ السماء، وهذا بطنُ السماء لظاهرها الذي تراه. وأخبرني بعضُ فصحاء المحدثين عن ابن الزبير^(٣) يعيبُ قتلةَ عثمان (رحمه الله)، فقال: خرجوا عليه كاللصوص من وراء القرية فقتلهم الله كلَّ قتلته، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب، يُريدُ هربوا ليلاً، فجعل ظُهور الكواكب بطوناً، وذلك جائزٌ على ما أخبرتك به)).^(٤)

أما قُطْرُب، فيما نقله عن بعض الآحاد، فحملها على معنى الظواهر، فقال: ((وأما

(١) الأضداد، أبو حاتم، ص ١٤٨.

(٢) سورة الرحمن: الآية ٥٤.

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، ولد في قباء في سنة (٢ هـ) وأبوه الصحابي الزبير بن العوام، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكنيته أبو بكر وأبو خبيب، وهو أول مولود من المهاجرين في المدينة، ومن صغار الصحابة. كان عالماً زاهداً، روي عنه أنه قسم الدهر إلى ثلاث ليال: ليلة هو قائم حتى الصباح، وليلة هو راكع حتى الصباح، وليلة هو ساجد حتى الصباح، وعن مجاهد (ت ٢٤٥ هـ): أن عبد الله بن العباس (ت ٦٨ هـ) قال عنه: «قارئ لكتاب الله، عفيف في الإسلام، وجده أبو بكر، وعمته خديجة، وخالته عائشة، وجدته صفية، والله إني لأحاسب نفسي محاسبة لم أحاسب به لأبي بكر وعمر» وقال عنه مجاهد: ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكفله ابن الزبير، وكان يسمى حمامة المسجد، وعائد بيت الله. كان فارس قريش في زمانه، شهد معركة اليرموك وهو مراهق، كما شهد فتح أفريقيا والمغرب وغزو القسطنطينية، ويوم الجمل مع خالته السيدة عائشة، وكان يضرب المثل بشجاعته، وكانت عائشة تكنى به فيقال لها: أم عبد الله، وقيل عنه: إنه لم يكن أحد أحب إليها بعد رسول الله من أبيها أبي بكر، وبعده ابن الزبير. عدَّ بعض المؤرخين من أهل السنة كابن كثير وابن الاثير والطبري أن خلافة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير شرعية؛ باعتبار أن معظم الأمصار الإسلامية خضعت له؛ ولذلك يذكر اسمه مع الخلفاء. قتل أمير المؤمنين ابن الزبير أيام حكم عبد الملك بن مروان، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وعمره بضع وسبعون سنة. ودانت بموته البلاد الإسلامية لحكم الأمويين. ينظر: الكامل في التاريخ، ٩٩ / ٤.

(٤) معاني القرآن، الفراء، ١١٨ / ٣.

قوله: ﴿بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾^(١) فَكَانَ الْحَسَنُ^(٢) (١١٠) يَقُولُ الظَّوَاهِرُ، وَقَدْ سَمَّاهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بَوَاطِنًا^(٣).

وقد تولى ابن قتيبة الردَّ مطوَّلاً على هذا المذهب بعد أن أجمل قول الفراء في تفسير الآية الكريمة: ﴿بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾^(٤)، فقال: ((وهذا أيضاً من عَجَبِ التَّفْسِيرِ. كيف تكونُ البِطَانَةُ ظَهَارَةً، وَالظَّهَارَةُ بِطَانَةً؛ وَالْبِطَانَةُ: مَا بَطَنَ مِنَ الثَّوْبِ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ إِخْفَاؤُهُ؛ وَالظَّهَارَةُ: مَا ظَهَرَ مِنْهُ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ إِبْدَاؤُهُ. وَهَلْ يَجُوزُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ لَوَجْهِ مُصَلَّى: هَذَا بِطَانَتُهُ؛ وَمَا وَلِيَ الْأَرْضَ مِنْهُ: هَذَا ظَهَارَتُهُ؟! وَإِنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يَعْرِفْنَا، مِنْ حَيْثُ نَفَهُمْ، فَضَلَّ هَذِهِ الْفُرْشُ وَأَنَّ مَا وَلِيَ الْأَرْضَ مِنْهَا إِسْتَبْرَقٌ، وَهُوَ الْغَلِيظُ مِنَ الدِّيَبَاجِ. وَإِذَا كَانَتِ الْبِطَانَةُ كَذَلِكَ: فَالظَّهَارَةُ أَعْلَى وَأَشْرَفُ. وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ^(٥) لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ^(٦)، فِي الْجَنَّةِ،

(١) سورة الرحمن: الآية ٥٤.

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري، يكنى أبا سعيد، ولد في خلافة عمر (ت ٢٣هـ)، رضي الله عنه، وحكاه عمر بيده، وكانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي ﷺ، فربما غابت فتعطيه أم سلمة تديها تعلقه به إلى أن تجيء أمه؛ فيدر عليه تديها فيشره، فكانوا يقولون: فصاحت من بركة ذلك. عاصر الحسن خلقاً من الصحابة، فأرسل الحديث على بعضهم، وسمع من بعضهم، كما يعد الحسن البصري أول خطاط في سلسلة الخطاطين الموجودين بعد علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) ينظر: صفة الصفة ١٦٦-١٦٤/٣.

ومعجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ص ١٤.

(٣) لأضداد، قطرب، ص ٢٦٤.

(٤) سورة الرحمن: الآية ٥٤.

(٥) ينظر: صحيح البخاري ٣/٣٦٣-١-٣٨٤ (كتاب المناقب) (باب مناقب سعد بن معاذ- رضي الله عنه)- حديث رقم ٣٥٩١. وقد جاء فيه: «حدثني محمد بن بشر: حدثنا غنْدَرٌ: حدثنا شُعْبَةُ عن أبي إسحاق قال: سمعتُ البراءَ- رضي الله عنه- يقول: أهديتُ للنبيِّ- صلى الله عليه وسلم- حَلَّةً حَرِيرٍ، فجعل أصحابُه يمسونها ويعجبونَ من لينها، فقال: (أتعجبونَ من لين هذه؟) لمناديلُ سعدِ بنِ معاذٍ خيرٌ منها وألينٌ. وقد ورد ذكره بغير لفظ في (كتاب بدء الخلق) (باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة) حديث رقم ٣٠٧٧ من المصدر السابق، ٣/١١٨٧.

(٦) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل. يكنى: أبا عمرو، وأمّه كَبِشَةَ بنت رافع من المبايعات. أسلم سعد على يد مصعب بن عمير فأسلم بإسلامه بنو عبد الأشهل، وهي أول دار أسلمت من الأنصار، وشهد بدرًا وأحُدًا، وثبت مع النبيِّ- صلى الله عليه وسلم- يومئذٍ، ورُمي يومَ الخندقِ، ثم انفجر كلمه بعد ذلك، فمات في شوال سنة ٥هـ وهو ابن سبع وثلاثين سنة، وصلى عليه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ودفن بالقيع، وله من الولد: عبد الله وعمرو. ينظر: صفة الصفة، ١/٢٠٩.

أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ الْحَلَّةِ)،^(١) فذكر المَنَادِيلَ دُونَ غَيْرِهَا ؛ لِأَنَّهَا أَحْسَنُ مِنَ الثِّيَابِ. وَكَذَلِكَ
الْبَطَائِنُ أَحْسَنُ مِنَ الظَّوَاهِرِ)).^(٢)

ويبدو ممَّا سبق أَنَّ الفِرَاءَ مَا كَانَ لِيَنْتَهِيَ إِلَى ضِدِّيَّةِ (البطانة) لولا استشهاده
بالحكاية السابقة، وقد جاء فيها ((تحت بطون الكواكب))^(٣)، والذي نراه أَنَّ بَطُونَ
الكواكب هنا إِنَّمَا هو ما استترَّ تحت حُنْحِ الظَّلَامِ ولم تستطع أَن تبيِّنَهُ الكواكب على
ما فيها من نُورٍ يتلأأُ، وإلَّا لَمَا أَمَكَنَ بَعْضُ قَتَلَةِ عَثْمَانَ، رضي الله عنه، أَن يفلتُوا من
القتل المؤكَّد. ((أما قولُهُم: ظَهَرُ السَّمَاءِ وَبَطْنُ السَّمَاءِ؛ لِمَا وَلِينَا؛ فَإِنَّ هَذَا قد يَجُوزُ
في ذِي الوَجْهَيْنِ المتساويين، إِذَا وَلِيَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُمَا قَوْمًا. تقولُ في حائِطٍ بينك وبين
قَوْمٍ، لِمَا وَلَيْكَ مِنْهُ،: هَذَا ظَهَرُ الحائِطِ؛ ويقولُ الآخرونَ لِمَا وَلَيْهِمُ: هَذَا ظَهَرُ الحائِطِ.
فكلُّ واحدٍ، مِنَ الوَجْهَيْنِ: ظَهَرٌ وَبَطْنٌ، ومثُلُ هذا كثيرٌ. كذلك السَّمَاءُ: مَا وَلِينَا مِنْهَا
ظَهَرٌ، وهو لَمِنَ فَوْقِهَا، مِنَ المِلائِكَةِ، بَطْنٌ)).^(٤) فإذا صحَّ هذا التوجيه، فَإِنَّ حَمْلَ
البَطَائِنِ على أَنَّها هي وجوهها، مُجانبٌ للصواب،^(٥) لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ
رَبِّي الفُجُوحَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾،^(٦) إِلَّا أَن يَكُونَ من باب تداخل اللغات في لغة
الحيِّ الواحد نتيجة الاقتراض من اللغات الأخرى، لقول السيوطي^(٧) (ت ٩١١هـ):

(١) الفتح الكبير، ٣/٢٩٥.

(٢) تفسير غريب القرآن، ٤٤٢-٤٤٣.

(٣) ينظر: الأضداد، الفراء، ٣/١١٨.

(٤) تفسير غريب القرآن، ٤٤٢-٤٤٣.

(٥) لتضاد في القرآن الكريم، ص ١٠٦.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

(٧) هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان
ابن ناظر الدين محمد بن يوسف الدين بن نجم الدين أبي صلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ
الهمام الحضيري الأسويطي. وجماله الدين لقبه، وكناهُ شيخه العز الكناني الحنبلي (ت ٨٧٦هـ) بأبي
الفضل، وأطلق عليه حين ولادته في مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ابن «الكتب»، وحمل
بعدها إلى الشيخ محمد المجذوب (ت ٨٥٩هـ) وهو من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسي فبارك عليه
ودعا له. نشأ جلال الدين في بيت زهد وعلم وورع وتقوى، وأتم حفظ القرآن الكريم وهو دون ثمانين
سنوات. وقد أسند وصايته قبل وفاته إلى الكمال بن الهمام (ت ٨٦١هـ) الذي قرره في وظيفة الشيخونية
ولحظه بنظره. أحضره والده مجلس الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) وله منه إجازة عامة.
التقى السيوطي بأجل العلماء وهو يطوف في حله الداخلي بالديار المصرية بين الفيوم ومدمياط والمحلة

((ويذكر شيدلة^(١) وغيره في قوله تعالى: ﴿بَطَّأَيْنَهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾،^(٢) أي ظواهرها بالقبضية)).^(٣) فإن لم يكن ذلك في اللهجة الواحدة، فهو، رأينا، في وجه من القياس جائز. ويبدو أن ما ألمح إليه الفراء من أمر الضدية في (اعتذر) كان فاتحة لقول الصغاني: ((اعتذر إذا أتى بعذر، وإذا لم يأت به)).^(٤)

وهو مذهب لم يُجره ابن قتيبة حين رأى في (المعذرون): الذين لا يجدون، أي يعرضون ما لا يريدون أن يفعلوه، يقال: عذرت في الأمر إذا قصرت، وأعذرت، حذرت)).^(٥)

والذي ندفع به ضدية (اعتذر) ماورد في غير موضع من القرآن الكريم، وهو ما قلل

حيث استطاع أن يحفظ العمدة ومنهاج الفقه والفرائض والنحو على جماعة من الشيوخ الجلة منهم: سراج الدين البلقيني (ت ٨٦٨هـ) والشيخ شهاب الدين الشارح مساحي وأبو زكريا يحيى بن محمد (ت ٨٧٦هـ)، وعرضها على علماء عصره وعدتهم نحو مائة وخمسين أو يزيد، فأجازوه. كما أُجيز بتدريس العربية في مستهل سنة ست وستين وثمانمائة وهو ابن السابعة عشرة من عمره، فتم له تأليف أول كتاب صححت نسبته إليه وهو «شرح الاستعاذة والبسملة» أوقف عليه شيخه علم الدين البلقيني (ت ٨٧٨هـ)، فكتب عليه تقریظاً. ولقد كان له شأن، وفي ترحاله إلى الشام واليمن والهند والمغرب والحجاز وحلب أمكنه أن يثري تجربته الحياتية ويزيد في معارفه العلمية. وإذا كان السيوطي قد اشتغل طوال عمره بالتدريس والإفتاء، وتفرغ للعلم والتأليف فيه، إلا أنه بعد تقدمه في السن ألف كتابه «التنفيس في الاعتذار عن الفتيا والتدريس» واعتزل الناس، وتجرد للعبادة، عفيف النفس، كريم الخلق، قانعاً بما قسمه الله تعالى له من رزق، حتى كان يرُدُّ الهبات وعطايا الأمراء والوزراء. قضى السيوطي نحبه سنة ٩١١هـ، وكان مرضه سبعة أيام بورم شديد في ذراعه اليسرى. وكان له مشهدٌ عظيم، ودفن بحوش قُوصون خارج باب القرافة، وقبره ظاهر وعليه قبّة. ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨/ ٥١-٥٢، وطبقات الحفاظ، ص ٥٤٨ و جلال الدين السيوطي، ص ٨-١١ و المزهري في علوم اللغة وأنواعها، (مقدمة التحقيق)، ١٥/١، ١٩.

(١) هو أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك بن منصور الجيلي، المعروف بـ شيدلة (وهو لقب عليه لا يُعرف معناه)، الفقيه الشافعي، الواعظ؛ كان فقيهاً فاضلاً، واعظاً ماهراً، فصيح اللسان، حلو العبارة كثير المحفوظات، صنّف في الفقه وأصول الدين والوعظ وجمع كثيراً من أشعار العرب، وتولى القضاء ببغداد بباب الأزج، وكان في أخلاقه حدة، وسمع الحديث الكثير عن جماعة كثيرة، وكان يتظاهر بمذهب الأشعري. توفي سنة ٤٩٤هـ ببغداد. وفيات الأعيان، ٣/ ٢٢٧-٢٢٨ وينظر: البداية والنهاية، ١٢/ ٦٤٨. سورة الرحمن: الآية ٥٤.

(٢) المتوكلي فيما ورد القرآن باللغات، ص ١٤٣.

(٣) الأضداد، الصغاني، ص ٢٣٧.

(٤) تفسير غريب القرآن، ص ١٩١.

من شأنه ابن قتيبة ، وما أيّدته شواهد الأقدمين :

فمن الأوّل : قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَآئِفَةً بِآثِمِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١) ، وقوله: ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (٢) وقوله: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ (٣) ، وقوله: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ، وقوله: ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (٥) .

ومن الثاني : قول ابن قتيبة، مضعفاً صحّة ذلك بقوله: ((ويقال: المُعْتَذِرُونَ هُمُ الْمُعْتَذِرُونَ. أُدْعِمَتِ النَّاءُ فِي الدَّالِّ. وَمَنْ قَرَأَ (المُعْتَذِرُونَ) ، فَإِنَّهُ مِنْ أَعْدَرْتُ فِي الْأَمْرِ)). (٦) ومن الثالث: قول ابن فارس (ت ٣٩٥هـ): ((العين والذال والراء بناءً صحيح ، له فروع كثيرة، ما جعل الله تعالى فيه وجه قياس بته، بل كل كلمة منها على نحوها وجهتها مفردة .

فالعذر معروف، وهو روم الإنسان إصلاح ما أنكر عليه بكلام. يقال ، منه: عذرتُه فأنا أعذره عذراً، والاسم العذر. وتقول: عذرتُه من فلان، أي لمتُه ولم ألم هذا... ويقال إن عذير الرجل: ما يروم ويحاول مما يُعذر عليه إذا فعله. قال الخليل (٧) (ت ١٧٥هـ):

(١) سورة التوبة: الآية ٦٦ .

(٢) سورة الكهف: الآية ٧٦ .

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٤ .

(٤) سورة التحريم: الآية ٧ .

(٥) سورة المرسلات: الآية ٣٦ .

(٦) تفسير غريب القرآن، ص ١٩١ .

(٧) هو أبو عبد الرحمن بن أحمد بن عمرو بن تميم بن أحمد الفراهيدي (نسبة إلى الفُرهود؛ وهو حيٌّ من الأزد)، من أصل عربي ، ولد في عُمان سنة ١٠٠هـ، وانتقل إلى البصرة فنشأ بها ، وتلقى العلم عن أفاضل العلماء أمثال أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) وعيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ). وحين تصدّى للحديث في العلم تلمذ على يديه عدد من النابهين ، أمثال : النضر بن شميل (ت ٢٠٣هـ) والأصمعي (ت ٢١٣هـ) وسيبويه (ت ١٨٠هـ). وكان الخليل ذكياً فطناً شاعراً، واستنبط من العروض ومن علل النحو ما لم يستنبطه أحدٌ، وما لم يسبقه إلى مثله سابق، وأثره في كتاب سيبويه بين .

وكان العجاج يرمُّ رَحْلَهُ لِسَفَرٍ أَرَادَهُ، فقالت امرأته: مَا هذا الذي ترمُّ؟ فقال: (١)

* جَارِي لَا تَسْتَنْكِرِي عَذِيرِي *

يُرِيدُ: لَا تُتَكْرِي مَا أَحَاوِلُ. وَتَقُولُ: اَعْتَدَرِ اعْتَدَارًا وَعِدْرَةً مِنْ ذَنْبِهِ فَعَدْرَتُهُ. وَالْمَعْدِرَةُ الْاسْمُ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ (٢). وَأَعْدَرَ فُلَانٌ، إِذَا أَبْلَىٰ عُدْرًا فَلَمْ يَلْمَ... وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ (٣)، وَيُقْرَأُ (الْمُعَذِّرُونَ). قَالَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ: الْمُعَذِّرُونَ بِالتَّخْفِيفِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الْعُدْرُ؛ وَالْمُعَذِّرُونَ: الَّذِينَ لَا عُدْرَ لَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ يَتَكَلَّفُونَ عُدْرًا. وَقَوْلُهُمْ لِلْمَقْصَرِّ فِي الْأَمْرِ: مُعَذِّرٌ، وَهُوَ عِنْدَنَا مَنْ الْعُدْرَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ يُقْصَرُّ فِي الْأَمْرِ مَعْوَلًا عَلَى الْعُدْرِ الَّذِي لَا يُرِيدُ يَتَكَلَّفُ ((٤)). وَبِهَذَا، فَإِنَّ الْمُعَذِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ (٥) تَبَيَّنَ ((حَالِ ذَوِي الْأَعْدَارِ فِي تَرَكَ الْجِهَادِ الَّذِينَ جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَبَيِّنُونَ لَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخُرُوجِ، وَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ. قَالَ الضَّحَّاكُ (٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ) بِالتَّخْفِيفِ، وَيَقُولُ هُمْ أَهْلُ الْعُدْرِ... وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ بَعْدَ

كما بعدَ وَاضَعُ أَوَّلَ مَعْجَمٍ عَرَبِيٍّ لِعُيُوبِ جَامِعٍ، سَمَّاهُ «كِتَابَ الْعَيْنِ» مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ الْجَزْءِ عَلَى الْكُلِّ، مَرْتَبًا إِيَّاهُ تَرْتِيبًا صَوْتِيًّا، عَاشَ الْخَلِيلُ زَاهِدًا زُخْرَفَ الْحَيَاةِ، يَنْفَعُ بِالْكَفَافِ، وَيُؤَثِّرُ غَيْرِهِ. رَوَى عَنْ تَلْمِيذِهِ النَّضْرَ أَنَّهُ قَالَ: «أَكَلْتُ الدُّنْيَا بَعْلَمَ الْخَلِيلِ وَكُتِبَ وَهُوَ فِي حَاصِّ لَا يَشْعُرُ بِهِ»؛ وَهُوَ الْقَائِلُ: أَعْمَلُ بَعْلَمِي وَلَا تَنْظُرْ إِلَى عَمَلِي يَنْفَعُكَ عِلْمِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي وَقَالَ: تَرَبَّعَ الْجَهْلُ بَيْنَ الْحَيَاءِ وَالْكِبَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ: نَوَازَ الْعِلْمَ بَدَائِعَ، وَبَدَائِعَ الْعِلْمَ مَسَارِحَ الْعَقْلِ، وَمَنْ اسْتَعْنَى بِمَا عِنْدَهُ جَهْلًا، وَمَنْ ضَمَّ إِلَى عِلْمِهِ عِلْمَ غَيْرِهِ كَانَ مِنَ الْمُوصُوفِينَ بِنَعْتِ الرَّبَّانِيِّينَ «أَيَّ الْعُلَمَاءِ تَوَفَّى الْخَلِيلُ سَنَةَ ١٧٥ هـ. يَنْظُرُ: طَبَقَاتُ النُّحُوبِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ، ص ٤٧-٤٨ وَمَرَاتِبُ النُّحُوبِيِّينَ، ص ٤٤-٤٥.

(١) ديوان العجاج، ص ٢٦، وهو مطلع أرجوزة له.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٠.

(٤) معجم مقاييس اللغة، ٤/٢٥٣-٢٥٤، مادة (عذر).

(٥) سورة التوبة: الآية ٩٠.

(٦) هو الضحَّك بن عبد عمرو بن مسعود بن عبد الأشهل بن حارثة بن دينار، وأمُّه السَّمِيرَاءُ بنت قيس بن مالك بن كعب بن عبد الأشهل. شهد بدرًا وأُحُدًا، وليس له عَقَبٌ. وكان للنُّعْمَانِ وللضَّحَّكِ أَخٌ مِنْ أَبِيهِمَا وَأُمُّهُمَا يُقَالُ لَهُ: قُطْبَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ، صَحْبُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقُتِلَ يَوْمَ بَثْرَ مَعُونَةَ شَهِيدًا. يَنْظُرُ: الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى، ٣/٥٢٠.

هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١) أَي لَمْ يَأْتُوا فَيَعْتَذِرُوا^(٢).

وقد سمع الكسائي، فيما رواه الفراء عنه، العرب تقول: ((أَصْبَحْتَ مُقَوِيًّا، أَي إِبْلِكَ قُوِيَّةً، وَأَصْبَحْتَ مُضْعِفًا، أَي إِبْلِكَ ضِعَافًا تَرِيدُ ضَعِيفَةً مِنَ الضُّعْفِ))^(٣)، فدلَّ بذلك على أن (مُقَوِي) من الأضداد.

والجدير بالذكر - هنا - أَنَّ الفراءَ لَمْ يَقِفِ البتَّةَ على مضمون قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعَا لِلْمُقَوِينَ﴾^(٤)، وهو تجاوز لا ندرى ما سببه؟ وهو سبب لا يفسره، في رأينا، سوى إقراره رأي أستاذه (الكسائي) فيما يتصل بضدية الكلمة في لغة العرب دون القرآن الكريم، ولما رآه من عدم إقرار مؤلفي الأضداد لها.

قال قطرب: ((وقالوا: هذا رَجُلٌ مُقَوٍ لذي القُوَّةِ، ومُقَوٍ ذهبَ زاده من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَّعَا لِلْمُقَوِينَ﴾^(٥)، من أقوى الرَّجُلِ: ذهبَ زاده))^(٦). وقال أبو حاتم: ((يُقَالُ رَجُلٌ مُقَوٍ، أَي قَوِيٌّ الإِبِلِ مَلِيءٌ...ويُقَالُ للذي صارَ في قَوَاءٍ مِنَ الأَرْضِ: أَقْوَى، فهو مُقَوٍ، والمُقَوِي - أيضاً - الضَّعِيفُ))^(٧). وقال ابن قتيبة في تفصيل مضمون الآية: ((نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً): أَي تُذَكِّرُكُمْ جَهَنَّمَ؛ و(وَمَتَّعَا) أَي: مَنَفَعَةً (لِلْمُقَوِينَ) يعني: المُسَافِرِينَ. سُمُّوا بذلك: لِنُزُولِهِمُ القَوَاءِ، وهو: الفَقْرُ... يُقَالُ: أَقْوَى الرَّجُلُ: إِذَا نَفَدَ زَادَهُ))^(٨) وقال أبو عبيدة: (المُقَوِي): الذي لا زَادَ معه ولا مَالٌ؛ وكذلك الدَّارُ التي قد أَقَوَّتْ من أَهلِهَا. و موضع آخر (المُقَوِي): الكثيرُ المَالِ، يُقَالُ: أَكْثَرُ مِنْ مَالِ فُلَانٍ فَإِنَّهُ مُقَوٍ))^(٩).

(١) سورة التوبة: الآية ٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/١٤٨.

(٣) معاني القرآن، الفراء، ٢/٣٢٥.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٣.

(٥) سورة الواقعة: الآية ٧٣.

(٦) الأضداد، قطرب، ص ٢٥٣.

(٧) الأضداد، أبو حاتم السجستاني، ص ٩٣.

(٨) تفسير غريب القرآن، ص ٤٥١.

(٩) مجاز القرآن، ٢/٢٥٢.

والتأمل في الأقوال السابقة يهدي إلى أن الهمزة في (أقوى) للدخول في الشيء، أي دخل القواء، أي الفقر، وسمي المسافر مقوياً من ذلك، إذ يغلب عليه نفاذ الزاد والمال والتعب الذي يؤدي إلى الضعف، أما وقد توفر لديه ذلك قوي من حيث غني. والذي نخلص إليه أن المعنيين مأخوذان من كلمتين (القوة، والقواء). فقد اتفقتا في الصيغة واختلفتا في الدلالة، ولا تضاد بينهما؛ لأن المسافر ليس ضداً للقوي، بل إننا نرى شبه تلازم بينهما، لأن السفر في الصحراء مشقة لا طاقة للضعيف بها. (١)

وقد استوقفت الفراء لفظة (ولى) في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾ (٢)، فقال: ((وقوله:) وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ (: يعني قِبَلَهُ (هُوَ مَوْلِيهَا) : أي مُسْتَقْبَلُهَا، الفعل لَكُلٌّ، يُرِيدُ: مَوْلٍ وَجْهَهُ إِلَيْهَا. وَالتَّوَلَّى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِقْبَالَ، وَفِي ﴿يُولُوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ (٣)، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (٤) انْصِرَافٌ. وَهُوَ كَقَوْلِكَ فِي الْكَلَامِ: انْصَرَفَ إِلَيَّ، أَيِ اقْبَلْ إِلَيَّ، وَانْصَرَفَ إِلَى أَهْلِكَ، أَيِ انْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ. وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ (هُوَ مَوْلَاهَا)، فَجَعَلَ الْفِعْلَ واقِعاً عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى واحِدٌ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.)) (٥) وعن قطرب ((قال ابن عباس: مَوْلَاهَا أَيِ مَصْرُوفٌ إِلَيْهَا وَمُسْتَقْبَلٌ بِهَا. وَقَالُوا وَلَّيْتُ: ادْبَرْتُ، فَهَذَا ضِدٌّ.)) (٦) (٢٤٣) وهو ما نقله أبو حاتم السجستاني عن قطرب دون تصرف. (٧) (٢٤٤)

فمن قرأ (هُوَ مَوْلِيهَا) بكسر اللام، ففي «هو» وجهان: (٨)

أحدهما: هو ضمير اسم الله تعالى، والمفعول الثاني المحذوف: أي اللهم مول تلك الجهة ذلك الفريق؛ أي يأمره بها. والثاني: هو ضمير كل؛ أي ذلك الفريق مولي الوجهة نفسه.

(١) ينظر: التضاد في القرآن الكريم، ص ١٩٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١١١.

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٥.

(٥) معاني القرآن، الفراء، ٨٥ / ١.

(٦) الأضداد، قطرب، ص ٢٧٢.

(٧) ينظر: الأضداد، أبو حاتم السجستاني، ص ١٤٤.

(٨) ينظر: التبيان في إعراب القرآن، ١ / ١٠٦.

ومن قرأ (مُولَاهَا)، بفتح اللّام ، ف«هو» على هذا «هو» ضميرُ الفريق، وموَلِي لما لم يُسمِّ فاعله، والمفعول الأوّل هو الضمير المرفوع فيه، و«ها» ضمير المفعول الثّاني؛ و«هو» ضمير الوجهة. وقيل للتولية كما أسلفنا. ولا يجوز أن يكون «هو» على هذه القراءة ضمير اسم الله تعالى ، لاستحالة ذلك المعنى؛ والجملة صفة لوجهة. وقرىء في الشّاذ: (وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ) بإضافة كلّ لوجهة؛ فعلى هذا تكون اللّام زائدة، والتقدير: (كلّ وجهة الله موليها أهلها)، وحسن زيادة اللّام تقدّم المفعول؛ وكون العامل اسم الفاعل.

ويبدو أن الضديّة في مثال الفراء وقطرب ((جاءت من تصوّر المقابلة المطلقة في المكان بين المتحدّث وأهل المخاطب، وافترض أن المخاطب ينبغي أن يكون دائماً في الوسط بينهما مقبلاً على أحدهما، مُدبراً عن الآخر، وهذا غير صحيح، إذ يُمكن أن يكونا في جهة واحدة بالنسبة للمخاطب، فيقبلُ عليهما معاً، أو يُدبرُ عنهما معاً، أو يذهب يميناً أو يسرةً، فلا يكون مقبلاً عليهما ولا مُدبراً عنهما مُجمّعين أو مُفترقين))، وهو الأمر الذي جعل أبا عبيدة يرى في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا﴾^(١) ((أي: مَوْجِبُهَا))،^(٢) أي ((موليها وجهه أي: مُسْتَقْبِلُهَا. يُريدُ أن لكلّ ذي ملة قبلة)).^(٣)

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن الفراء رغبَ عن الخوض في تفسير بعض ما كان طرفاً بين معظم كتب التفاسير التي تناولت ألفاظ التضادّ أو ما يجري مجراه جَوْهراً أو عَرَضاً، وهي ممّا لا يتجاوز أصابع اليد عدداً، نحو: ﴿يَشْرِي﴾^(٤)، و(وَأَسْرُوا)^(٥)، و(عَفُوا)^(٦)، و(فَتَهَجَدُ)^(٧)، و(فُرُوءِ)^(٨)، و(وَحَسِبُوا)^(٩)، و(لَعَلَّ)^(١٠)،

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٢) مجاز القرآن، ١/٦٠.

(٣) تفسير غريب القرآن، ص ٦٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.

(٥) سورة يونس: الآية ٥٤.

(٦) سورة الأعراف: الآية ٩٥.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٩) سورة المائدة: الآية ٧١.

(١٠) سورة يوسف: الآية ٢٠.

و(بَعْضَ) ^(١)، و(كُلِّ) ^(٢)، و(فَخَشِينَا) ^(٣)، و(وَخَافَ) ^(٤)، و(يَرْجُوا) ^(٥)، و(يَأْيِسُ) ^(٦)،
وغيرها ، ولعلّ ما يسوغ ذلك العدول هو عدم قوله بالتضادّ فيها، وهو سبب ينضاف
إلى كونها لا تشكّل الهدف الأساس من وراء تأليف المعاني، والمتمثّل في ((تفسير
مُشكّل إعراب القرآن ومعانيه)) ^(٧).

-
- (١) سورة الزخرف: الآية ٦٣.
 - (٢) سورة النحل: الآية ١١٢.
 - (٣) سورة الكهف: الآية ٨٠.
 - (٤) سورة البقرة: الآية ٢٣٠.
 - (٥) سورة الكهف: الآية ١١٠.
 - (٦) سورة الرعد: الآية ٣١.
 - (٧) ينظر: معاني القرآن، ١ / ١، وما بعدها.

الخاتمة :

أفضى بنا البحث إلى جملة من النتائج، وهي على النحو الآتي :

١- يبدو ممّا سبق : أنّ الفراء وجد في ظاهرة التضادّ ما يمثّل وجهاً من وجوه دلالة الألفاظ في اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وقد كان ذلك استجابةً لما تقتضيه طبيعة منهج التفسير وضرورة تفسير مُشكّل إعراب القرآن ومعانيه.

٢- وقد لا يكون حرف الضدّ في الآية واضحاً من حيث يحتاج إلى بيان، ولذا رأينا الفراء يتجاوز في أحيان كثيرة الآيات التي اعتقد بعض المفسّرين أنّها اشتملت على حروف التضادّ، وقد يكون ذلك بحكم إدراك الفراء عصور المشافهة والاحتجاج، فتعرّف عن قرب إلى خصائص لغة العرب، وما يتكلّم به أهلها من ألفاظ ظهر فيها التضادّ، فنزل القرآن الكريم بها.

٣- أمّا ما ساقه الفراء من ألفاظ امتازت بخاصية مزدوجة، فاستعملت بوجهين متضادّين، فيمكن تفسيره بالعلتين اللتين فسّر بهما وجود الأضداد في العربية، وهما تداخل المعنيين على جهة الاتّساع وتداخل اللهجات؛ وهما في رأينا من أقوى علل نشأة الأضداد، ممّا يجعل الأضداد أقرب إلى المقلوب لفظه في كلام العرب والمزال عن جهته أو ما يجري مجرى التضاد أو المشترك أو في السلب أدخل، متجاوزاً بذلك عن الوقوف على كثير ممّا عمد بعض المفسّرين إلى الوقوف عليه منها.

٤- على أنّ ما ظهرت ضديته وثبت بالنقل والسّماع وإن كان ممّا يمكن تفسير من منطلق العلتين السابقتين أو لدلالة اللفظ على فعل ونتيجة هذا الفعل؛ فلا يجد الفراء بُدّاً من إثباته، مُدلاً بذلك على أنّ ملاك الأمر في الأضداد إلى السياق وتعلّق أوله بآخره، وإلى قرائن الحال التي تكتنف المتخاطبين، وليس مردّه إلى تشابه الألفاظ واختلافها فحسب.

٥- كما أوقفنا الفراء على مدى تعفّفه وتعفّف المتقدّمين (أمثال الأصمعي وأبي حاتم)، من الخوض في كتاب الله الكريم خاصّة والأمر يتعلّق بظاهرة لا يمكن تعليل

معظم ألفاظها بحملها على التفاؤل أو التطيّر أو التهكّم، أو التعبير بلفظ محبوب عن لفظ مكروه، أو العكس تفكّها أو تقبيحاً، فكان له فضل السبق على بعض الدّراسين المحدثين في إخراجها من دائرة الأضداد.

٦- ولئن لم يسلم الفراء من توهم الضديّة في بعض ألفاظ القرآن الكريم ، فإنّه دلّل على دورانها على قلّتها في مجموع لغة العرب، وبرهن مرّة أخرى على أنّ الشّعوبيين لم يفهموا السرّ الكامن من وراء استعمال العربيّ لهذه الألفاظ على قلّتها وظرافتها على حدّ تعبير قطرب، فكان بذلك إلى مذهب الاعتدال في أمرها أميل.

٧- هذا، وإنّ كنّا نرجع إلى حمل ألفاظ التضاد في لغة العرب على اتّساع المعنى ووقوع التداخل فيه ، واختلاف اللهجات بين العرب، وهي - في رأينا - من أقوى علل نشأة الأضداد، فإنّنا نراه المذهب الأليق بتنزيه النص الشريف ، وهو ما نهيب بالمتدبّرين إلى الأخذ به في الوقوف على معانيه. والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ١- أساس البلاغة لأبي القاسم محمود الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٢- الأضداد، أبو بكر محمد بن قاسم الأنباري (ت ٣٠٤هـ)، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠م.
- ٣- الأضداد، أبو حاتم عبد الله بن الأشعث السجستاني (ت ٢٥٥هـ) ضمن ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي وللسجستاني ولابن السكيت، ويليها ذيل في الأضداد للصّغاني، نشر أوغست هفنز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩١٣م.
- ٤- الأضداد، أبو علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت بعد ٢٠٧هـ)، تحقيق هانز كوفلر، مجلة إسلاميكا، المجلد ٥، ليزنغ، ١٩٣٢م.
- ٥- الأضداد، الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني (ت ٦٥٠هـ)، ضمن ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي وللسجستاني ولابن السكيت، ويليها ذيل في الأضداد للصّغاني، نشر أوغست هفنز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩١٣م.
- ٦- الأضداد، عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٣هـ)، ضمن ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي وللسجستاني ولابن السكيت، ويليها ذيل في الأضداد للصّغاني، نشر أوغست هفنز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩١٣م.
- ٧- الأضداد، منصور فهمي ضمن مجلة اللغة العربية بالقاهرة، العدد ٢/ ١٩٣٥م.
- ٨- الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي عبد الواحد بن علي (ت ٣٥١هـ)، تحقيق عزة حسن، دمشق، ١٩٦٣م.
- ٩- الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل القالي (ت ٣٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ١٠- إنباه الرواة على أنباه النحاة، لجمال الدين أبي الحسن علي بن

يوسف القفطي(ت٦٤٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

١٠- الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي(ت٥٢١هـ)، تحقيق محمد رضوان الداية، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١١- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير(ت٧٧٤هـ)، اعتنى بهذه الطبعة ووثقها عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

١٢- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مكتبة المثنى ببغداد.

١٢- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري(ت٦١٦هـ)، تحقيق بإشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢٥-١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٣- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.

١٤- تأويل مشكل القرآن أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(ت٢٧٦هـ)، شرح السيد احمد صقر، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٥- التطور اللغوي التاريخي، إبراهيم السامرائي، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٦- تفسير غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(ت٢٧٦هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر تحت عنوان تفسير غريب القرآن، عن دار الكتب العلمية، ٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

- ١٧- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، طبعة جديدة مخرجة الأحاديث، كتب هوامشه وضبطه حسين بن إبراهيم زهران، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- ١٨- تفسير غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ)، طبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ١٩٩٠م.
- ١٩- التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥هـ) الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
- ٢٠- التّضادّ في ضوء اللغات السامية، دراسة مقارنة، ربحي كمال، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م.
- ٢١- التّضاد في القرآن الكريم بين النّظرية والتطبيق لمحمد نور الدين المنجد ط ١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق.
- ٢٢- ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي وللسجستاني ولابن السكيت ويليها ذيل في الأضداد للصّغاني، نشر أوغست هفندر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩١٣م.
- ٢٣- جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت ٣٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.
- ٢٤- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- ٢٥- جلال الدين السيوطي، فاروق عبد المعطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- ٢٥- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ)، دار صادر، ط ١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ١٣٤٥هـ.
- ٢٦- دراسات في فقه اللغة، صبحي الصالح، ط ٩، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١م.
- ٢٧- ديوان زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزي، دار صادر، بيروت، دت.

٢٨- ديوان العجاج رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه، تحقيق عبد الحفيظ السّطلي، مكتبة أطلس، دمشق، دت.

٢٩- ديوان النّابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦م.

٣٠- رواية اللغة، عبد الحميد الشلقاني، دار المعارف بمصر، دت.

٣١- سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق حسن هندراوي، ط ١، دار القلم، ١٩٨٥م.

٣٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي أبو الفلاح (ت ١٠٨٩هـ)، ط ٢، دار السيرة، بيروت، ١٩٧٩م.

٣٢- الصحابي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عمر فاروق الطباع، ط ١، مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٣٣- الصّاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٥٨هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م

٣٤- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط ٥، قصر الكتاب، البلدية، شركة الشهاب، الجزائر، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٣٥- صفة الصّفوة، جمال الدّين أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق عبد الرحمن اللّادقي و حياة شيحا اللّادقي، ط ٣، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

٣٦- معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) دار صادر، بيروت

٣٧- طبقات الأمم، أبو القاسم بن أحمد صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ)، مطبعة محمّد

مطر، مصر.

٣٧- طبقات الحفاظ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق علي محمد عمر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٣ م.

٣٥- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري (ت ٢٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت.

٣٦- طبقات النحويين و اللغويين، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف.

٣٦- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ط ١، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٢ م.

٣٧- علم اللغة بين القديم والحديث، عاطف مذكور، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٧ م.

٣٧- عوامل التطور اللغوي دراسة في نمو الثروة اللغوية، أحمد عبد الرحمن حمّاد، ط ١، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣ م.

٣٨- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ)، إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠ م.

٣٩- الفتح الكبير في ضمّ الزيادة إلى الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي، يوسف النبهاني، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥١ هـ-١٩٣٢ م.

٤٠- فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق سليمان سليم البواب عن دار الحكمة للطباعة والنشر بدمشق سنة ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤ م.

٤١- الفهرست، محمد بن إسحاق النّديم، تحقيق مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥ م.

٤١- في اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥ م.

٤٢- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي(ت ٨١٧هـ)، مؤسسة فن الطباعة، مصر، دت.

٤٣- قراءة النصوص التراثية إشكاليات وضوابط، محمد خليفة الدناع، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي، طرابلس، ط ١، الجماهيرية العظمى، ١٤٢٣هـ-١٩٩٤م.

٤٤- الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، صحح أصوله: عبد الوهاب النجار، القاهرة، إدارة الطباعة المنيرية، عام ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.

٤٤- الكتاب، أبو عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه(ت ١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.

٤٥- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي(ت ٤٣٧هـ)، تحقيق محيي الدين رمضان، ط ٤، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٤٦- كلام العرب من قضايا اللغة العربية، حسن ظاظا، ط ٢، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٤٧- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور(ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.

٤٨- اللغات في القرآن رواية ابن حسون المقرئ عن ابن عباس(ت ٦٨هـ)، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط ٢، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

٤٩- ما اتفق لفظه واختلف معناه، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد(ت ٢٨٥هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

٥٠- المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين، سيف الدين الأمدي الشيرازي(ت ٤٧٦هـ)، تحقيق وتقديم حسن محمود الشافعي مكتبة وهبة، ط ٢،

القاهرة، ٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٥١- المتوكلي فيما ورد القرآن باللغات، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق عبد الكريم الزبيدي، ط ١، دار البلاغة، بيروت، ١٩٨٨ م.

٥٢- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠ هـ)، تحقيق محمد فؤاد سزكين، ط ١، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٥٣- المخصص، أبو الحسن علي بن سيده (ت ٤٥٨ هـ)، المطبعة الأميرية، بولاق، القاهرة، ٣١٧ هـ - ٣٢١ هـ.

٥٤- مدخل إلى علم اللغة، محمود فهمي حجازي، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨ م.

٥٥- مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي الحلبي (ت ٣٥١ هـ) تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عذب، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٥٥- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٥٦- المشترك اللغوي نظرياً وتطبيقاً، توفيق محمد شاهين، ط ١، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٥٧- معاني القرآن، أبو الحسن سعيد بن مسعدة المعروف بالأخفش الأوسط (ت ٢١٥ هـ)، تحقيق فايز فارس، ط ٣، الكويت، ١٩٨١ م.

٥٨- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، تحقيق علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥ م.

٥٩- معرفة القرء الكبار على الطبقات والإعصار، أبو عبد الله شمس الدين الذهبى (ت ؟ هـ)، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ط ١، دار الكتب الحديثة.

٦٠- معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة.

٦١- معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، لعفيف البهنسي، مكتبة لبنان ناشرون.

٦٢- معجم مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الرّاغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكاتب العربي، بيروت.

٦٣- معجم المفسّرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ط ١، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٨٤م.

٦٤- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.

٦٥- الموازنة في شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، ١٩٦١م.

٦٦- نصوص في فقه اللغة العربية للسيد يعقوب بكر، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧١م.

٦٧- النعم والبهايم والوحش والسباع والطيور والهوام وحشرات الأرض، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، نشره وعلّق عليه مورييس بويج، حوليات القديس يوسف، المجلد ١٩٠٨، ٣م.

٦٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس محمد بن إبراهيم بن بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، ط ١، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.